الفصل السابع

عرض الأمثال في كتاب الله تعالى

obeikandl.com

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣]

«ومن هذا ما وقع في القرآن من الأمثال التي لا يعقلها إلا العالمون، فإنها تشبيه شيء بشيء في حكمه، وتقريب المعقول من المحسوس أو أحد المحسوسين من الآخر».

الإمام ابن القيم

obeikandl.com

مقدمة

للأمثال في كتاب الله تعالى مساحتها وقد تخللت سورًا كثيرةً وهي تصوير حسي لمعانٍ ذهنية.

يقول ابن القيم في تعريفها: «ومن هذا ما وقع في القرآن من الأمثال التي لا يعقلها إلا العالمون، فإنها تشبيه شيء بشيء في حكمه، وتقريب المعقول من المحسوس أو أحد المحسوسين من الآخر»(١).

ومعانيها هامة جدًا وتصل إلى النفس وتبلغها بصورة سهلة، ومما لاحظنا عدم الاهتمام بها كثيرًا بينما هي دواء ناجع لأمراض كثيرة وفي نفس الوقت تكشف معانٍ هامة وغزيرة.

وقد أثنى الله تعالى على من يَعْلَمها ويعقل معانيها فقال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣] ، فمن الخطأ إهمالها .. وقد ألف بعض العلماء في بيانها وحصرها.

ولنلق نظرة على بعضها تنبيهًا على أهمية الشأن وعلى عدم إهمالها مستعرضين غالبًا تفسير ابن القيم لها في كتابه "اعلام الموقعين" .

* * *

لم نَجْر فى هذا الفصل على النسق السابق فى تحديد المقاصد من السياق .. وذلك لأن الأمثال ليست موضوعًا مستقلاً ولكنها تابعة لسياق آخر خادمة له لإبرازه وتوضيحه؛ فقد يُضرب المثل لبيان قبح الشرك وخطورته .. فهو تابع لأمر التوحيد وقد أفردنا له فصلاً .

أو يضرب المثل فى باب الخُلُق فهو تابع للأحكام ـ فالأحكام ليست أحكام الفقه فقط؛ فإن الحلال والحرام والأمر والنهي يشمل الخُلُق كما يشمل أحكام الفقه وغيرها ـ وقد أفردنا للأحكام فصلاً مستقلاً بذاته .. وهكذا.

فلهذا لم نتكلم على مقاصده كأمر مستقل فقد تكلمنا على مقاصده فيما سبق ضمن السياق الذي يتبعه.

ومع ذلك فقد آثرنا إفراده بفصل مستقل لأهميته كمجال أثنى الله تعالى على فهمه، فلا يُهمل، هذا من جانب..

ومن جانب آخر فهو باب تربية عظيم فأردنا الاستفادة منه والاشارة الى أهميته لأن الكثير يمر عليها مرورًا سريعًا لا يفهم ما يراد منها مع أن وقْعها فى القلوب وإصلاحها للنفوس كخُلُق وقيم تربوية بالغ الأثر لمن فهمها وعقلها عن ربه سبحانه وتعالى ..

وهى من هذا الجانب أيضًا تمهيد للفصل التالي وهو الاستشفاء بالقرآن العظيم.

* * *

هذا مع ملاحظة أنا لم نلتزم إيراد الأمثال بترتيب ورودها فى المصحف الشريف وإنما تخيرنا بعض الأمثال (أحد عشر مثالاً) على هذا الترتيب:

---

(١) إعلام الموقعين، جـ ١، ص ١٥٠.

١- التوحيد وأثره وارتباط المؤمن بالسماء، وضرورة تعاهد الإيمان، وبيان خِفّة الباطل.

٢- ثلاثة أمثال للمشرك: الأول لبيان حقيقة معبوداته الباطلة والتي يحتمي بها في زعمه!، والثاني لحاله هو وتمزقه بين آلهة شتى وللمتمزق بين أهواء وأغراض شتى نصيب من هذا المثل بحسب وصفه الذى اكتسبه، والثالث لعجزه وحمقه وخيبة رجائه ودعائه.

٣- ثم مَثَلٌ للعمل الخالص الصحيح والعمل المسبوق أو المقترن أوالمتبوع بالآفات المحبطة.

٤- قيم خلقية لمعالجة بعض الآفات وهي الغيبة.

٥- مثلان مضروبان لعدم القيام بالعلم: الأول في شأن المهمل للعلم الذى لا همّ له فى القيام به، والثاني لمن خالف علمه عن عمد وآثر الدنيا عليه فلم يجر على مقتضى ما علمه.

٦- مَثَلٌ مضروب لنوعي النفاق: من كان على هدى ثم نزع منه، والمتردد الذى لم يُمض فى الهدى والحق عزيمة.

٧- مَثَل للعمل الحابط: للضال المبتدع، والغاوي المعاند.

٨-حقيقة حال المؤمن وإيمانه ومصيره، وحال الكافر وكفره ومصيره.

وبالله تعالى التوفيق وهو المستعان سبحانه وعليه التكلان . .

فإن الخير بيديه والشر ليس اليه . .

* * *

obeikandl.com

الموضع الأول

التوحيد والعمل الصالح .. والصلة المستمرة بالله والارتباط بالسماء وضرورة تعاهد الإيمان مع بيان خفة الباطل وأنه لا جذور له

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾.

إلى من يَزْهدون في تربية نفوسهم .. ويكتفون بسوابق العمل .. إلى مسلمي الأجندات والحاصلين على لقب (مناضل أو داعية سابق) ويظن أنه يمكن أن يرتاح هنا أو يركن إلى الدنيا، هذا لا يكون، هذه دار عمل وبذل وعطاء إلى آخر رمق وآخر لحظة من العمر كما سئل الإمام أحمد متى يجد العبد طعم الراحة؟ فقال: عندما يضع أول قدم في الجنة.

إلى من لا يروي جذوة إيمانه كل يوم ..

إلى من يهمل تلك النبتة ..

إلى من يثق في نفسه ولا يخاف عليها افتقاد هذا الدين ..

إلى من يفتقد شعور الحرص على هذه القيمة العظيمة .. التوحيد.

هذا الدين شجرة في قلبك يجب أن لا تكف عن ريّها ومعالجة الدغل والآفات وإلا انزوت النبتة وتآكلت.

من الخير لك أن يصعد لك كل ساعة وكل غدوة وكل عشية عمل صالح تُعرف به في السماء فيتصل قلبك بالسماء. أصل هذا الدين وجذوره في قلبك وهذا يصلك بالسماء فتبقى مرتبطا بها وأنت تدب على هذه الأرض وذلك من خلال ثمار هذا التوحيد من العمل والكد لله.

إلى العبد الذي يشعر باحتياجه إلى التثبيت وإلا زالت قدماه هنا ويوم يلقى ربه تعالى .. هذا طريق التثبيت وهذا مأخذه ومن هنا يُنال، والتثبيت هنا كالتثبيت هناك تحت التراب .. في كلٍ لا يكون إلا بالله؛ به الحول وبه القوة وبيده الخير، والخذلان هو أن توكل إلى نفسك فتهوى وتُجتث:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٤ - ٢٧].

يقول ابن القيم رحمه الله: «فشبه سبحانه وتعالى الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة لأن الكلمة الطيبة تثمر العمل الصالح والشجرة الطيبة تثمر الثمر النافع، وهذا ظاهر على قول جمهور المفسرين الذين يقولون الكلمة الطيبة هي: شهادة أن لا إله إلا الله فإنها تثمر جميع الأعمال الصالحة الظاهرة والباطنة، فكل عمل صالح مرضي لله ثمرة هذه الكلمة.

وفي تفسير علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: ﴿ كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾ شهادة أن لا إله إلا الله، ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وهو المؤمن، ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ قول لا إله إلا الله في قلب المؤمن، ﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء. وقال الربيع بن أنس: ﴿ كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾ هذا مثل الإيمان؛ فالإيمان الشجرة الطيبة، وأصلها الثابت الذي لا يزول الإخلاص فيه، وفرعه في السماء خشية الله.

والتشبيه على هذا القول أصح وأظهر وأحسن فإنه سبحانه شبه شجرة التوحيد في القلب بالشجرة الطيبة الثابتة الأصل الباسقة الفرع في السماء علوا التي لا تزال تؤتي ثمرتها كل حين، وإذا تأملت هذا التشبيه رأيته مطابقا لشجرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب التي فروعها من الأعمال الصالحة الصاعدة إلى السماء، ولا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة كل وقت بحسب ثباتها في القلب ومحبة القلب لها وإخلاصه فيها ومعرفته بحقيقتها وقيامه بحقوقها ومراعاتها حق رعايتها.

فمن رسخت هذه الكلمة في قلبه بحقيقتها التي هي حقيقتها واتصف قلبه بها وانصبغ بها بصبغة الله التي لا أحسن صبغة منها فعرف حقيقة الإلهية التي يثبتها قلبه لله ويشهد بها لسانه وتصدقها جوارحه ونفى تلك الحقيقة ولوازمها عن كل ما سوى الله وواطأ قلبه لسانه في هذا النفي والإثبات وانقادت جوارحه لمن شهد له بالوحدانية طائعة سالكة سبل ربه ذللا غير ناكبة عنها ولا باغية سواها بدلاً كما لا يبتغي القلب سوى معبوده الحق بدلاً؛ فلا ريب أن هذه الكلمة من هذا القلب على هذا اللسان لا تزال تؤتي ثمرتها من العمل الصالح الصاعد إلى الله كل وقت، فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل الصالح إلى الرب تعالى وهذه الكلمة الطيبة تثمر كلامًا كثيرًا طيبًا يقارنه عمل صالح فيرفع العمل الصالح إلى الكلم الطيب كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾.

فأخبر سبحانه أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب، وأخبر أن الكلمة الطيبة تثمر لقائلها عملاً صالحًا كل وقت.

والمقصود أن كلمة التوحيد إذا شهد بها المؤمن عارفًا بمعناها وحقيقتها نفيًا وإثباتًا متصفًا بموجبها قائمًا قلبه ولسانه وجوارحه بشهادته فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل من هذا الشاهد، أصلها ثابت راسخ في قلبه وفروعها متصلة بالسماء وهي مخرجة لثمرتها كل وقت.

ومن السلف من قال: إن الشجرة الطيبة هي النخلة ويدل عليه حديث ابن عمر الصحيح. ومنهم من قال هي: المؤمن نفسه كما قال محمد بن سعد حدثني أبي حدثني عمي حدثني أبي عن أبيه عن ابن عباس قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ يعني: بالشجرة الطيبة المؤمن، ويعني بالأصل الثابت في الأرض والفرع في السماء يكون المؤمن يعمل في الأرض ويتكلم فيبلغ عمله وقوله السماء وهو في الأرض. وقال عطية العوفي في قوله: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾، قال: ذلك مثل المؤمن لا يزال يخرج منه كلام طيب وعمل صالح يصعد إلى الله. وقال الربيع بن أنس: ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾، قال: ذلك المؤمن ضرب مثله في الإخلاص لله وحده وعبادته وحده لا شريك له، أصلها ثابت قال: أصل عمله ثابت في الأرض وفرعها في السماء قال: ذكره في السماء.

ولا اختلاف بين القولين والمقصود بالمثل المؤمن والنخلة مشبهة به وهو مشبه بها وإذا كانت النخلة شجرة طيبة فالمؤمن المشبه بها أولى أن يكون كذلك ومن قال من السلف إنها شجرة في الجنة فالنخلة من أشرف أشجار الجنة.

حكمة تشبيه المؤمن بالشجرة:

وفي هذا المثل من الأسرار والعلوم والمعارف ما يليق به ويقتضيه علم الذي تكلم به وحكمته.

ـ فمن ذلك أن الشجرة لابد لها من عروق وساق وفروع وورق وثمر، **فكذلك شجرة الإيمان والإسلام ليطابق المشبه المشبه به؛ فعروقها العلم والمعرفة واليقين، وساقها الإخلاص، وفروعها الأعمال، وثمرتها ما توجبه الأعمال الصالحة من الآثار الحميدة والصفات الممدوحة والأخلاق الزكية والسمت الصالح والهدى والدلّ المرضي**، فيستدل على غرس هذه الشجرة في القلب وثبوتها فيه بهذه الأمور فإذا كان العلم صحيحًا مطابقًا لمعلومه الذي أنزل الله كتابه به، والاعتقاد مطابقًا لما أخبر به عن نفسه وأخبرت به عنه رسله، والإخلاص قائم في القلب، والأعمال موافقة للأمر والهدي والدلّ والسمت مشابه لهذه الأصول مناسب لها، علم أن شجرة الإيمان في القلب أصلها ثابت وفرعها في السماء، وإذا كان الأمر بالعكس علم أن القائم بالقلب إنما هو الشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار.

ـ ومنها أن الشجرة لا تبقى حية إلا بمادة تسقيها وتنميها فإذا قطع عنها السقي أوشك أن تيبس، فهكذا شجرة الإسلام في القلب إن لم يتعاهدها صاحبها بسقيها كل وقت بالعلم النافع والعمل الصالح والعود بالتذكر على التفكر والتفكر على التذكر وإلا أوشك أن تيبس وفي مسند الإمام أحمد من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الإيمان يَخْلَق في القلب كما يَخْلَق الثوب فجددوا إيمانكم».

وبالجملة فالغرس إن لم يتعاهده صاحبه أوشك أن يهلك، ومن هنا تعلم شدة حاجة العباد إلى ما أمر الله به من العبادات على تعاقب الأوقات وعظيم رحمته وتمام نعمته وإحسانه إلى عباده بأن وظفها عليها وجعلها مادة لسقي غراس التوحيد الذي غرسه في قلوبهم.

ـ ومنها أن الغرس والزرع النافع قد أجرى الله سبحانه العادة أنه لابد أن يخالطه دغل ونبت غريب ليس من جنسه؛ فإن تعاهده ربه[1] ونقاه وقلعه كمل الغرس والزرع واستوى وتم نباته وكان أوفر لثمرته وأطيب وأزكى، وإن تركه أوشك أن يغلب على الغرس والزرع ويكون الحكم له أو يضعف الأصل ويجعل الثمرة ذميمة ناقصة بحسب كثرته وقلته، ومن لم يكن له فقه نفْس في هذا ومعرفة به فإنه يفوته ربح كثير وهو لا يشعر؛ فالمؤمن دائمًا سعيه في شيئين سقي هذه الشجرة وتنقية ما حولها، فبسقيها تبقى وتدوم وبتنقية ما حولها تكمل وتتم. والله المستعان وعليه التكلان.

فهذا بعض ما تضمنه هذا المثل العظيم الجليل من الأسرار والحكم ولعلها قطرة من بحر بحسب أذهاننا الوقِفة وقلوبنا المخطئة وعلومنا القاصرة وأعمالنا التي توجب التوبة والاستغفار وإلا فلو طهرت منا القلوب وصفت الأذهان وزكت النفوس وخلصت الأعمال وتجردت الهمم للتلقي عن الله ورسوله لشاهدنا من معاني كلام الله وأسراره وحكمه ما تضمحل عنده العلوم وتتلاشى عنده معارف الخلق،

---

(١) يعني صاحبه.

وبهذا تعرف قدر علوم الصحابة ومعارفهم وأن التفاوت الذي بين علومهم وعلوم من بعدهم كالتفاوت الذي بينهم في الفضل، والله أعلم حيث يجعل مواقع فضله ومن يختص برحمته.

فصل ضرب المثل للكافر:

ثم ذكر سبحانه مثل الكلمة الخبيثة فشبهها بالشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، فلا عرق ثابت ولا فرع عال ولا ثمرة زاكية؛ فلا ظل ولا جني ولا ساق قائم ولا عرق في الأرض ثابت، فلا أسفلها مغدق ولا أعلاها مونق ولا جنى لها ولا تعلو بل تعلى.

وإذا تأمل اللبيب أكثر كلام هذا الخلق في خطابهم وكسبهم وجده كذلك، فالخسران الوقوف معه والاشتغال به عن أفضل الكلام وأنفعه.

قال الضحاك: ضرب الله مثلا للكافر بشجرة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار يقول: ليس لها أصل ولا فرع وليس لها ثمرة ولا فيها منفعة، كذلك الكافر لا يعمل خيرًا ولا يقوله ولا يجعل الله فيه بركة ولا منفعة.

وقال ابن عباس: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ وهي الشرك، ﴿ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ يعني الكافر، ﴿ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ يقول: الشرك ليس له أصل يأخذ به الكافر ولا برهان ولا يقبل الله مع الشرك عملاً، فلا يقبل عمل المشرك ولا يصعد إلى الله، فليس له أصل ثابت في الأرض ولا فرع في السماء يقول: ليس له عمل صالح في السماء ولا في الأرض.

وقال الربيع بن أنس: مثل الشجرة الخبيثة مثل الكافر ليس لقوله ولا لعمله أصل ولا فرع ولا يستقر قوله ولا عمله على الأرض ولا يصعد إلى السماء.

وقال سعيد عن قتادة في هذه الآية: إن رجلاً لقي رجلاً من أهل العلم فقال له: ما تقول في الكلمة الخبيثة؟ قال: ما أعلم لها في الأرض مستقرًا ولا في السماء مصعدًا إلا أن تلزم عنق صاحبها حتى يوافي بها القيامة.

وقوله: ﴿ ٱجْتُثَّتْ ﴾ أي: استؤصلت من فوق الأرض ثم أخبر سبحانه عن فضله وعدله في الفريقين، أصحاب الكلم الطيب والكلم الخبيث، فأخبر أنه يثبت الذين آمنوا بإيمانهم بالقول الثابت أحوج ما يكونون إليه في الدنيا والآخرة، وأنه يضل الظالمين وهم المشركون عن القول الثابت؛ فأضل هؤلاء بعدله لظلمهم، وثبت المؤمنين بفضله لإيمانهم.

وتحت قوله: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾، كنز عظيم من وفق لمظنته وأحسن استخراجه واقتناءه وأنفق منه فقد غنم، ومن حُرِمَه فقد حُرِم وذلك أن العبد لا يستغني عن تثبيت الله له طرفة عين فإن لم يثبته وإلا زالت سماء إيمانه وأرضه عن مكانهما وقد قال تعالى لأكرم خلقه عليه عبده ورسوله: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾، وقال تعالى لأكرم خلقه: ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾.

وفي الصحيحين من حديث البجلي قال: وهو يسألهم ويثبتهم، وقال تعالى لرسوله: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾.

فالخلق كلهم قسمان موفق بالتثبيت ومخذول بترك التثبيت، ومادة التثبيت أصله ومنشأه من القول الثابت وفعل ما أمر به العبد؛ فبهما يثبت الله عبده، فكل من كان أثبت قولاً وأحسن فعلاً كان أعظم تثبيتًا قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾، فأثبت الناس قلبًا أثبتهم قولاً، والقول الثابت هو القول الحق والصدق وهو ضد القول الباطل الكذب؛ فالقول نوعان ثابت له حقيقة وباطل لا حقيقة له، وأثبت القول كلمة التوحيد ولوازمها فهي أعظم ما يثبت الله بها عبده في الدنيا والآخرة، ولهذا ترى الصادق من أثبت الناس وأشجعهم قلبًا، والكاذب من أمهن الناس وأخبثهم وأكثرهم تلونًا وأقلهم ثباتًا، وأهل الفراسة يعرفون صدق الصادق من ثبات قلبه وقت الإخبار وشجاعته ومهابته، ويعرفون كذب الكاذب بضد ذلك ولا يخفى ذلك إلا على ضعيف البصيرة.

وسئل بعضهم عن كلام سمعه من متكلم به، فقال: والله ما فهمت منه شيئًا إلا أني رأيت لكلامه صولة ليست بصولة مبطل، فما منح العبد أفضل من منحة القول الثابت، ويجد أهل القول الثابت ثمرته أحوج ما يكونون إليه في قبورهم ويوم معادهم كما في صحيح مسلم من حديث البراء بن عازب عن النبي أن هذه الآية نزلت في عذاب القبر.

سؤال القبر:

وقد جاء هذا مبينًا في أحاديث صحاح فمنها ما في المسند من حديث داود ابن أبي هند عن أبي نضرة عن أبي سعيد قال كنا مع النبي ﷺ في جنازة فقال: «يا أيها الناس إن هذه الأمة تبتلى في قبورها فإذا الإنسان دفن وتفرق عنه أصحابه جاءه ملك بيده مطراق فأقعده فقال: ما تقول في هذا الرجل؟ فإن كان مؤمنًا قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

فيقول له: صدقت فيفتح له باب إلى النار فيقال له هذا منزلك لو كفرت بربك فأما إذا آمنت فإن الله أبدلك به هذا ثم يفتح له باب إلى الجنة فيريد أن ينهض له فيقال له: اسكن ثم يفسح له في قبره وأما الكافر والمنافق فيقال له: ما تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري فيقال له: لا دريت ولا اهتديت ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقال له: هذا منزلك لو آمنت بربك فأما إذا كفرت فإن الله أبدلك به هذا ثم يفتح له باب إلى النار ثم يقمعه الملك بالمطراق قمعة يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين». قال بعض أصحابه يا رسول الله ما منا من أحد يقوم على رأسه ملك بيده مطراق إلا هيل عند ذلك فقال رسول الله ﷺ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾.

وفي المسند نحوه من حديث البراء بن عازب وروى المنهال بن عمرو عن زاذان عن البراء قال: قال رسول الله ﷺ: وذكر قبض روح المؤمن فقال: «يأتيه آت يعني في قبره فيقول: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول: ربي الله وديني الإسلام ونبيي محمد ﷺ. قال: فينتهره فيقول: ما ربك؟ وما دينك؟ وهي آخر فتنة تعرض على المؤمن فذلك حيث يقول الله: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾، فيقول: ربي الله وديني الإسلام ونبيي محمد. فيقال له: صدقت وهذا حديث

صحيح. وقال حماد بن سلمة عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾. قال: إذا قيل له في القبر من ربك؟ وما دينك؟ فيقول: ربي الله وديني الإسلام ونبيي محمد جاءنا بالبينات من عند الله فآمنت به وصدقت. فيقال له: صدقت على هذا عشت وعليه مت وعليه تبعث».

قال الأعمش عن المنهال بن عمرو وعن زاذان عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: وذكر قبض روح المؤمن قال: «فترجع روحه في جسده ويبعث إليه ملكان شديدا الانتهار فيجلسانه وينتهرانه ويقولان من ربك؟ فيقول: الله. وما دينك؟ فيقول: الإسلام. فيقولان له: ما هذا الرجل أو النبي الذي بعث فيكم؟ فيقول: محمد رسول الله. فيقولان له: وما يدريك؟ قال: فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت فذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾، رواه ابن حبان في صحيحه والإمام أحمد.

وفي صحيحه أيضًا من حديث أبي هريرة يرفعه قال: «إن الميت ليسمع خفق نعالهم حين يولولن عنه مدبرين فإذا كان مؤمنًا كانت الصلاة عند رأسه والزكاة عن يمينه وكان الصيام عن يساره وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه فيؤتى من عند رأسه فتقول الصلاة: ما قبلي مدخل فيؤتى عن يمينه فتقول الزكاة: ما قبلي مدخل فيؤتى عن يساره فيقول الصيام: ما قبلي مدخل فيؤتى من عند رجليه فيقول: فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس ما قبلي مدخل فيقال له: اجلس فيجلس قد مثلت له الشمس قد دنت للغروب فيقال له: أخبرنا عما نسألك عنه فيقول: دعوني حتى أصلي فيقال: إنك ستفعل فأخبرنا عما نسألك. فيقول: وعم تسألوني؟ فيقال له: أرأيت هذا الرجل الذي كان فيكم ماذا تقول فيه؟ وماذا تشهد به عليه فيقول: أمحمد ﷺ. فيقال: نعم. فيقول: أشهد أنه رسول الله وأنه جاء بالبينات من عند الله فصدقناه.

فيقال له: على ذلك حييت وعلى ذلك مت وعلى ذلك تبعث إن شاء الله ثم يفسح له قبره سبعون ذراعًا وينور له فيه ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقال له انظر إلى ما أعد الله لك فيها فيزداد غبطة وسرورًا ثم تجعل نسمته في النسم الطيب وهي طير خضر تعلق بشجر الجنة ويعاد الجسد إلى ما بدأ منه من التراب وذلك قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾.

ولا تستطل هذا الفصل المعترض .. وكل مسلم أشد ضرورة إليه من الطعام والشراب والنفس. وبالله التوفيق»[1].

* * *

(١) إعلام الموقعين، جـ ١، ص ١٧١ - ١٨٠.

الموضع الثاني

حقيقة المعبودات الباطلة وحقيقة قوى الأرض البا ـلة

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١ - ٤٣].

مقدمة:

أولاً: لمن سيق هذا المثل؟.

إلى المؤمن ليثبت ويزداد رسوخًا في طريقه ..

والى أهل الباطل لتعريتهم وبيان حقيقة ما فى أيديهم من القوى ..

وإلى من يرى الباطل أكبر من حجمه ولا يستطيع رؤية عوامل الفناء فيه.

فيزهد في الحق وتختل ثقته فيه .. بعكس من يرى في أحلك المواقف أن الحق قادم ومنتصر كما قال ﷺ لخباب بن الأرت والصحابة في أشد حالاتهم من تحمل الأذى من أهل مكة فقال له: «ولكنكم تستعجلون».

ثانيا: مأخذ رسول الله ﷺ أمام الباطل وهو فى حالة الاستضعاف:

روى البخاري قال: حدثني محمد بن المثنى حدثنا يحيى عن إسماعيل حدثنا قيس عن خباب بن الأرت قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة قلنا له: ألا تستنصر لنا ألا تدعو الله لنا؟ قال: «كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين وما يصده ذلك عن دينه. ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب وما يصده ذلك عن دينه والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون»(١).

وكما كان ﷺ في أحلك المواقف لما تأكد من خيانة بني قريظة مع قدوم أحزاب العرب: قريش والأحابيش وأسد وغطفان، فبدلاً من أن يفت هذا في عضده ﷺ إذا به يستبشر بالفتوح لكنوز كسرى وقيصر، وذلك عندما عرضت لهم كدية وهم يحفرون الخندق ..

يقول ابن كثير: «فأخذ المعول من سلمان فضرب الصخرة ضربة فصدعها وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتيها يعني المدينة حتى كأنها مصباح في جوف ليل مظلم فكبر رسول الله ﷺ تكبير فتح وكبر المسلمون ثم ضربها الثانية فكذلك ثم الثالثة فكذلك وذكر ذلك سلمان والمسلمون لرسول الله ﷺ وسألوه عن ذلك النور فقال: «لقد أضاء لي من الأولى قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها ومن الثانية أضاءت القصور الحمر من أرض الروم كأنها أنياب

---

(١) صحيح البخاري، جـ ٣، ص ١٣٢٢، رقم ٣٤١٦. **متوسد بردة:** جعلها وسادة له. **تستنصر:** تطلب النصرة من الله تعالى. **ليتمن:** من الإتمام والكمال. **هذا الأمر:** وهو الإسلام. **تستعجلون:** النتائج والثمرات.

الكلاب وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها ومن الثالثة أضاءت قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها فأبشروا، واستبشر المسلمون». وقالوا: الحمد لله موعود صادق. قال: ولما طلعت الأحزاب قال المؤمنون هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانًا وتسليمًا»[1].

إلى من ينخدع بالباطل فيورث قلبه يأسًا وعمله فتورًا، أو ينخدع فيركن إلى الذين ظلموا ..

أو ينخدع فيلوذ بعدو الله .. يضرب الله مثلاً لبيان الحقيقة مهما بدا الظاهر مغايرًا لذلك وخدّاعًا.

ثالثًا: قيمة كفاية رب العالمين التي يضل عنها المهزوم:

وإلى من يتعبد لضريح أو مقبور ظنًا منه أن سيجد عنده شيئًا، والى من يلوذ بقوى ظاهرة في الأرض يطلب عندهم الأمان وينشد في كنفهم العز، وإلى من يضل عن نصرة الله تعالى وكفايته كما قال تعالى في سورة الزمر: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٦-٣٨].

فقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾، في هذا الموضع معناه من يضلل الله تعالى عن نصرته وكفايته والمهتدي أيضًا في هذا الموضع معناه المهتدي لنصرته تعالى وكفايته.

يقول الإمام البيضاوي: «﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ ﴾، حتى غفل عن كفاية الله له وخوفه بما لا ينفع ولا يضر ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ يهديه إلى الرشاد، ﴿ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ ﴾ إذ لا راد لفعله كما قال: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ﴾ غالب منيع ﴿ ذِي انتِقَامٍ ﴾ ينتقم من أعدائه»[2].

* * *

فإلى هؤلاء جميعًا، وخاصة إلى من يضل عن هذه الكفاية، يسوق الله تعالى هذا المثل حتى لا يرتبط بغيره أحد ولا ينخدع آخر به: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤١ - ٤٣].

يقول ابن القيم رحمه الله: «فذكر سبحانه أنهم ضعفاء، وأن الذين اتخذوهم أولياءهم أضعف منهم، فهم في ضعفهم وما قصدوه من اتخاذ الأولياء كالعنكبوت اتخذت بيتًا وهو من أوهن البيوت وأضعفها، وتحت هذا المثل أن هؤلاء المشركين أضعف ما كانوا حين اتخذوا من دون الله أولياء فلم يستفيدوا بمن اتخذوهم أولياء إلا ضعفًا كما قال تعالى: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ

(١) البداية والنهاية، جـ ٤، ص ١٠٠.
(٢) تفسير البيضاوي، جـ ١، ص ٦٧ - ٦٨.

نَصۡرَهُمۡ وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٞ مُّحۡضَرُونَ ﴾، وقال بعد أن ذكر إهلاك الأمم المشركين: ﴿ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ﴾.

فهذه أربعة مواضع في القرآن تدل على أن من اتخذ من دون الله وليًا يتعزز به ويتكبر به ويستنصر به لم يحصل له به إلا ضد مقصوده، وفي القرآن أكثر من ذلك وهذا من أحسن الأمثال وأدلها على بطلان الشرك وخسارة صاحبه وحصوله على ضد مقصوده.

فإن قيل: فهم يعلمون أن أوهن البيوت بيت العنكبوت فكيف نفى عنهم علم ذلك بقوله:

﴿ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ؟ ﴾.

فالجواب: أنه سبحانه لم ينف عنهم علمهم بوهن بيت العنكبوت وإنما نفى عنهم علمهم بأن اتخاذهم أولياء من دونه كالعنكبوت اتخذت بيتًا، فلو علموا ذلك لما فعلوه، ولكن ظنوا أن اتخاذهم الأولياء من دونه يفيدهم عزًا وقدرة فكان الأمر بخلاف ما ظنوه»[1].

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله: «والآن. وعلى مصارع العتاة البغاة من الكفرة والظلمة والفسقة على مدار القرون .. والآن. وبعد الحديث في مطالع السورة عن الفتنة والابتلاء والإغراء .. الآن يضرب المثل لحقيقة القوى المتصارعة في هذا المجال .. إن هنالك قوة واحدة هي قوة الله. وما عداها من قوة الخلق فهو هزيل واهن، من تعلق به أو احتمى، فهو كالعنكبوت الضعيفة تحتمي ببيت من خيوط واهية. فهي وما تحتمي به سواء: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴾.

إنه تصوير عجيب صادق لحقيقة القوى في هذا الوجود. الحقيقة التي يغفل عنها الناس أحيانًا، فيسوء تقديرهم لجميع القيم، ويفسد تصورهم لجميع الارتباطات، وتختل في أيديهم جميع الموازين. ولا يعرفون إلى أين يتوجهون. ماذا يأخذون وماذا يدعون؟.

وعندئذ تخدعهم قوة الحكم والسلطان يحسبونها القوة القادرة التي تعمل في هذه الأرض، فيتوجهون إليها بمخاوفهم ورغائبهم، ويخشونها ويفزعون منها، ويترضونها ليكفوا عن أنفسهم أذاها، أو يضمنوا لأنفسهم حماها!.

وتخدعهم قوة المال، يحسبونها القوة المسيطرة على أقدار الناس وأقدار الحياة. ويتقدمون إليها في رغب ورهب؛ ويسعون للحصول عليها ليستطيلوا بها ويتسلطوا على الرقاب كما يحسبون!.

وتخدعهم قوة العلم يحسبونها أصل القوة وأصل المال، وأصل سائر القوى التي يصول بها من يملكها ويجول، ويتقدمون إليها خاشعين كأنهم عباد في المحاريب!.

وتخدعهم هذه القوى الظاهرة. تخدعهم في أيدي الأفراد وفي أيدي الجماعات وفي أيدي الدول، فيدورون حولها، ويتهافتون عليها، كما يدور الفراش على المصباح، وكما يتهافت الفراش على النار!.

---

(١) إعلام الموقعين، جـ ١، ص ١٥٤ـ١٥٥.

وينسون القوة الوحيدة التي تخلق سائر القوى الصغيرة، وتملكها، وتمنحها، وتوجهها، وتسخرها كما تريد، حيثما تريد. وينسون أن الالتجاء إلى تلك القوى سواء كانت في أيدي الأفراد، أو الجماعات، أو الدول .. كالتجاء العنكبوت إلى بيت العنكبوت .. حشرة ضعيفة رخوة واهنة لا حماية لها من تكوينها الرخو، ولا وقاية لها من بيتها الواهن.

وليس هنالك إلا حماية الله، وإلا حماه، وإلا ركنه القوي الركين.

هذه الحقيقة الضخمة هي التي عني القرآن بتقريرها في نفوس الفئة المؤمنة، فكانت بها أقوى من جميع القوى التي وقفت في طريقها؛ وداست بها على كبرياء الجبابرة في الأرض ودكت بها المعاقل والحصون. ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۘ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

لقد استقرت هذه الحقيقة الضخمة في كل نفس، وعمرت كل قلب، واختلطت بالدم، وجرت معه في العروق، ولم تعد كلمة تقال باللسان، ولا قضية تحتاج إلى جدل. بل بديهة مستقرة في النفس، لا يحول غيرها في حس ولا خيال.

قوة الله وحدها هي القوة. وولاية الله وحدها هي الولاية. وما عداها فهو واهن ضئيل هزيل؛ مهما علا واستطال، ومهما تجبر وطغى، ومهما ملك من وسائل البطش والطغيان والتنكيل.

إنها العنكبوت وما تملك من القوى ليست سوى خيوط العنكبوت:

﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۘ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾.

وإن أصحاب الدعوات الذين يتعرضون للفتنة والأذى، وللإغراء والإغواء. لجديرون أن يقفوا أمام هذه الحقيقة الضخمة ولا ينسوها لحظة، وهم يواجهون القوى المختلفة. هذه تضر بهم وتحاول أن تسحقهم. وهذه تستهويهم وتحاول أن تشتريهم .. وكلها خيوط العنكبوت في حساب الله، وفي حساب العقيدة حين تصح العقيدة، وحين تعرف حقيقة القوى وتحسن التقويم والتقدير.

إن الله يعلم ما يدعون من دونه شيء ..

إنهم يستعينون بأولياء يتخذونهم من دون الله والله يعلم حقيقة هؤلاء الأولياء. وهي الحقيقة التي صورت في المثل السابق .. عنكبوت تحتمي بخيوط العنكبوت!.

﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.. هو وحده العزيز القادر الحكيم المدبر لهذا الوجود.

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾..

فلقد اتخذها جماعة من المشركين المغلقي القلوب والعقول مادة للسخرية والتهكم. وقالوا: إن رب محمد يتحدث عن الذباب والعنكبوت. ولم يهز مشاعرهم هذا التصوير العجيب لأنهم لا يعقلون ولا يعلمون: ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾»[1].

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن ، سورة العنكبوت.

الموضع الثالث
حقيقة حال المشرك
وحال المتمزق بين أغراض وأهواء شتى

﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج: ٣١].

إلى من يتعلق بغير الله ..إلى معلق قلبه بضريح أو مقبور أو مخلوق دون الله ولو كان رسول رب العالمين تعلق عبادة.

وإلى من يرجو الخلق يستحثهم ويرغب إليهم أو يخاف منهم ويرى أيديهم تملك شيئًا ..

وإلى من لم يُجمِع قلبه الهم والقصد على الله تعالى .. فتشعبت عليه الهموم والاهتمامات وتعدد حبه وتعددت مخاوفه .. وأسلم نفسه .. يقتنص كل شيطان وكل شهوة وكل هوى وكل عارض مزعة من نفسه ومن أشواقه وطموحه ومخاوفه ..

إلى من يتعبد للمال أو الشهوات ويعلق بهذا رضاه وسخطه ..

وإلى من يرى في غير الله ركنًا ركينًا وملجأً حصينًا ..

إلى من هبط من سماء توحيده وفطرته التي فطره الله عليها: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين: ٤].

وهذه هي الفطرة السليمة، فمن فقدها ففيه قوله: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ [التين: ٥].

يا ضائع اسمع إلى ربك: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج: ٣١].

يقول ابن القيم رحمه الله:

«فتأمل هذا المثل ومطابقته لحال من أشرك بالله وتعلق بغيره ويجوز لك في هذا التشبيه أمران:

أحدهما: أن تجعله تشبيهًا مركبًا ويكون قد شبه من أشرك بالله وعبد معه غيره برجل قد تسبب إلى هلاك نفسه هلاكًا لا يرجى معه نجاة، فصوّر حاله بصورة حال من خر من السماء فاختطفته الطير في الهوى فتمزق مزقًا في حواصلها، أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطارح البعيدة، وعلى هذا لا تنظر إلى كل فرد من أفراد المشبه ومقابله من المشبه به.

والثاني: أن يكون من التشبيه المفرق فيقابل كل واحد من أجزاء الممثل بالممثل به، وعلى هذا فيكون قد شبه الإيمان والتوحيد في علوه وسعته وشرفه بالسماء التي هي مصعده ومهبطه فمنها هبط إلى الأرض وإليها يصعد منها، وشبه تارك الإيمان والتوحيد بالساقط من السماء إلى أسفل سافلين من حيث التضييق الشديد والآلام المتراكمة، والطير الذي تخطف أعضاءه وتمزقه كل ممزق بالشياطين التي يرسلها الله سبحانه وتعالى عليه وتؤزه أزًا وتزعجه وتقلقه إلى مظان هلاكه، فكل شيطان له مزعة من دينه وقلبه كما أن

لكل طير مزعة من لحمه وأعضائه، والريح التي تهوي به في مكان سحيق هو هواه الذي يحمله على إلقاء نفسه في أسفل مكان وأبعده من السماء»[١].

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله: «إنه مشهد الهوي من شاهق ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

وفي مثل لمح البصر يتمزق ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾، أو تقذف به الريح بعيدًا عن الأنظار ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾، في هوة ليس لها قرار!.

والملحوظ هو سرعة الحركة مع عنفها وتعاقب خطواتها في اللفظ "بالفاء" وفي المنظر بسرعة الاختفاء .. على طريقة القرآن الكريم في التعبير بالتصوير.

وهي صورة صادقة لحال من يشرك بالله، فيهوي من أفق الإيمان السامق إلى حيث الفناء والانطواء. إذ يفقد القاعدة الثابتة التي يطمئن إليها. قاعدة التوحيد. ويفقد المستقر الآمن الذي يثوب إليه؛ فتتخطفه الأهواء تخطف الجوارح، وتتقاذفه الأوهام تقاذف الرياح. وهو لا يمسك بالعروة الوثقى، ولا يستقر على القاعدة الثابتة، التي تربطه بهذا الوجود الذي يعيش فيه»[٢].

* * *

(١) إعلام الموقعين، جـ ١، ص ١٨٠.
(٢)الظلال، سورة الحج.

الموضع الرابع
عجز المشرك وحمقه وخيبة دعائه ورجائه

﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ [الرعد: ١٤].

إلى من يتعلق قلبه بمقبور حتى لو كان نبيًّا ﷺ أو صالحًا أو وليًا لا يقدر على شيء ولا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا ..

وهو مرهون بعمله محبوس عليه إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر .. فيصرف لهم الجهال حقوق الله تعالى الخالصة في العبادة: من أنواع التعبد من الرجاء والسؤال والطلب والتعلق وخوف السر والشكوى والاستغاثة والاستعانة والتوكل والاعتماد والتمسح بمقابرهم للتبرك بها والطواف بها والذبح من أجلهم والنذر لهم وتقديم النذور والصدقات والقربات من أجلهم والاستشفاء بقبورهم وزيارتهم الشركية وطلب الولد منهم وطلب الرزق والعافية والنصر على العدو .. وغير هذا، بل ووصفهم بصفات الربوبية والتحكم في الخلق والكون وإثبات التأثير لهم على وجه لا يكون إلا للرب الخالق مشابهة منهم تامة للمشركين الأولين بل أشد.

إلى هؤلاء يسوق ربنا سبحانه وتعالى هذا المثل لكل من توجه وتعلق بغير رب العالمين:

﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ [الرعد: ١٤].

يقول الحافظ ابن كثير: «قال علي بن أبي طالب ﷺ: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ﴾ قال: التوحيد، رواه ابن جرير وقال ابن عباس وقتادة ومالك عن محمد بن المنكدر: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ﴾ لا إله إلا الله.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: ومثل الذين يعبدون آلهة غير الله ﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ﴾، قال علي بن أبي طالب: كمثل الذي يتناول الماء من طرف البئر بيده وهو لا يناله أبدًا بيده فكيف يبلغ فاه؟ وقال مجاهد: ﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ﴾ يدعو الماء بلسانه ويشير إليه فلا يأتيه أبدًا وقيل: المراد كقابض يده على الماء فإنه لا يحكم منه على شيء كما قال الشاعر:

فإني وإياكم وشوقًا إليكم ... كقابض ماء لم تسقه أنامله

وقال الآخر:

فأصبحت مما كان بيني وبينها ... من الود مثل القابض الماء باليد

ومعنى هذا الكلام أن الذي يبسط يده إلى الماء إما قابضًا وإما متناولاً له مِن بُعْد كما أنه لا ينتفع بالماء الذي لم يصل إلى فيه الذي جعله محلاً للشرب، فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله إلها غيره لا ينتفعون بهم أبدًا في الدنيا ولا في الآخرة ولهذا قال: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾»[1].

---

(١) تفسير ابن كثير.

ويقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى:

«إنها دعوة الله والتوجه إليه والاعتماد عليه وطلب عونه ورحمته وهداه. وما عداها باطل وما عداها ضائع وما عداها هباء .. ألا ترون حال الداعين لغيره من الشركاء؟ انظروا هذا واحد منهم. ملهوف ظمآن يمد ذراعيه ويبسط كفيه. وفمه مفتوح يلهث بالدعاء. يطلب الماء ليبلغ فاه فلا يبلغه. وما هو ببالغه. بعد الجهد واللهفة والعناء. وكذلك دعاء الكافرين بالله الواحد حين يدعون الشركاء: ﴿ وَمَا دُعَاءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾.

وفي أي جو لا يبلغ هذا الداعي اللاهف اللاهث قطرة من ماء؟ في جو البرق والرعد والسحاب الثقال، التي تجري هناك بأمر الله الواحد القهار!.

وفي الوقت الذي يتخذ هؤلاء الخائبون آلهة من دون الله، ويتوجهون إليهم بالرجاء والدعاء، إذا كل من في الكون يعنو لله. وكلهم محكومون بإرادته، خاضعون لسنته، مسيَّرون وفق ناموسه. المؤمن منهم يخضع طاعةً وإيمانًا، وغير المؤمن يخضع أخذًا وإرغامًا، فما يملك أحد أن يخرج على إرادة الله، ولا أن يعيش خارج ناموسه الذي سنه للحياة:

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴾»[1].

* * *

(١) الظلال، سورة الرعد.

الموضع الخامس

مثل العمل الصحيح الخالص لله تعالى ومثل العمل المسبوق أو المقترن أو المتبوع بآفة كالرياء والسمعة والعجب والمن والأذى وسائر الذنوب والآفات المحبطة والتي يغفل عنها الكثير

قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦١]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

إلى المسكين الذي يعمل ويجد، وفي عمله آفة لا ينتبه إليها.

ويعد العُدة للقاء الله عملاً ظاهرًا دون نظر إلى مضمونه وإلى شعوره بمنة الله عليه في العمل فيُتْبع عمله بما يحبطه، وتراكمت الأعمال وظن أن هذا ذخره، ولقى الله ففوجئ أحوج ما كان إلى العمل بضياع الأمور أضاعها بنفسه .. ضيعتها يداه ..

هو ينفق ويعمل لكن قلبه كما هو في قسوته،لم تليّن الأعمال قلبه ولم تؤثّر فيه بينما طبيعة العمل الصالح التأثير في القلب، فكما أن الأصل الذي في القلب كلما قوي قوي العمل فكذلك العمل الظاهر ـ والذي كان نابعًا من الباطن ـ هو بدوره يؤثّر على الباطن بزيادة الإيمان وخشوع القلب ونداوته وحلاوة الطاعة، ويجد العبد هذا من نفسه ويتذوقه، فإن كان في العمل آفة حُرم العبد من هذا وصار العمل كحفنة من التراب على حجر صلب لا أثر له فيه يزول مع أول عارض ..

فعندما تُحرم من هذا فيجب أن ترجع إلى نفسك وتعلم أن التفريط منك[1] بخلاف من يعمل مراقبًا ظاهر عمله فيصلحه على مقتضى الشريعة الموروثة عن رسول الله، ويصلح باطنه؛ فنفسه طيبة بالعمل من النفقة ومن غيرها راجيًا قبول الله، غير واثق من عمله بل هو على رجاء من ربه، وما في قلبه من العمل أعظم مما في ظاهره، غير ملتفت إلا لربه ..

وإلى من يعمل منفقًا ما قل وما كثر لا يستقل شيئًا، يعطي من أجل الله ناظرًا أن يكون قلبه معلقًا به ويده منفقه حتى لو كان حَبَّة من عنب كما فعلت عائشة رضي الله عنها لما أعطت لسائل حبة من عنب ناظرة لهذا المعنى الكريم، ولما عجب منها خادمها قالت: (أتدري كم فيها من ذرة)، رضي الله عنها وأرضاها.

---

(١) راجع مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام فقد أشار إلى هذه المعاني.

فلهذه الأصناف المختلفة ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾، ضرب الله تعالى هذه الأمثلة:

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦١]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٦٦]. يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: «شبه سبحانه نفقة المنفق في سبيله سواء كان المراد بها الجهاد أو جميع سبل الخير من كل بر، بمن بذر بذرًا فأنبتت كل حبة منه سبع سنابل اشتملت كل سنبلة على مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء فوق ذلك بحسب حال المنفق وإيمانه وإخلاصه وإحسانه ونفع نفقته وقدرها ووقوعها موقعها، فإن ثواب الإنفاق يتفاوت بحسب ما يقوم بالقلب من الإيمان والإخلاص والتثبيت عند النفقة وهو إخراج المال بقلب ثابت قد انشرح صدره بإخراجه وسمحت به نفسه وخرج من قلبه قبل خروجه من يده، فهو ثابت القلب عند إخراجه غير جزع ولا هلع ولا متبعه نفسه ترجف يده وفؤاده، ويتفاوت بحسب نفع الإنفاق ومصارفه بمواقعه وبحسب طيب المنفق وزكاته.

وتحت هذا المثل من الفقه أنه سبحانه شبه الإنفاق بالبذر فالمنفق ماله الطيب لله لا لغيره باذر ماله في أرض زكية فمغلّه بحسب بذره وطيب أرضه وتعاهد البذر بالسقي ونفي الدغل والنبات الغريب عنه، فإذا اجتمعت هذه الأمور ولم تحرق الزرع نار ولا لحقته جائحة جاء أمثال الجبال وكان مثله كمثل جنة بربوة وهي المكان المرتفع الذي تكون الجنة فيه نصب الشمس والرياح فتتربى الأشجار هناك أتم تربية فنزل عليها من السماء مطر عظيم القطر متتابع فرواها ونماها فآتت أكلها ضعفي ما يؤتيه غيرها بسبب ذلك الوابل ﴿ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾ مطر صغير القطر يكفيها لكرم منبتها يزكو على الطل وينمى عليه، مع أن في ذكر نوعي الوابل والطل إشارة إلى نوعي الإنفاق الكثير والقليل.

فمن الناس من يكون إنفاقه وابلاً ومنهم من يكون إنفاقه طلاً والله لا يضيع مثقال ذرة، فإن عرض لهذا العامل ما يغرق أعماله ويبطل حسناته كان بمنزلة رجل له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت، فإذا كان يوم استيفاء الأعمال وإحراز الأجور وجد هذا العامل عمله قد أصابه ما أصاب صاحب هذه الجنة، فحسرته حينئذ أشد من حسرة هذا على جنته.

فهذا مثل ضربه الله سبحانه في الحسرة لسلب النعمة عند شدة الحاجة إليها مع عظم قدرها ومنفعتها، والذي ذهبت عنه قد أصابه الكبر والضعف فهو أحوج ما كان إلى نعمته ومع هذا فله ذرية ضعفاء لا يقدرون على نفعه والقيام بمصالحه بل هم في عياله، فحاجته إلى نعمته حينئذ أشد ما كانت لضعفه وضعف ذريته، فكيف يكون حال هذا إذا كان له بستان عظيم فيه جميع الفواكه والثمر وسلطان ثمره أجل الفواكه وأنفعها وهو ثمر النخيل والأعناب فمغله يقوم بكفايته وكفاية ذريته فأصبح يوما وقد وجده محترقًا كله كالصريم فأي حسرة أعظم من حسرته.

قال ابن عباس: هذا مثل الذي يختم له بالفساد في آخر عمره. وقال مجاهد: هذا مثل المفرط في طاعة الله حتى يموت. وقال السدي: هذا مثل المرائي في نفقته الذي ينفق لغير الله ينقطع عنه نفعها أحوج ما يكون إليه. وسأل عمر بن الخطاب الصحابة يومًا عن هذه الآية فقالوا: الله أعلم. فغضب عمر وقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم. فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين. قال: قل يا ابن أخي ولا تحقر نفسك. قال: ضرب مثلاً لعمل. قال: لأي عمل؟. قال: لرجل غني يعمل بالحسنات ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله كلها. قال الحسن: هذا مثل قلَّ والله من يعقله من الناس: شيخ كبير ضعف جسمه وكثر صبيانه أفقر ما كان إلى جنته وإن أحدكم والله أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا».

ثم يقول رحمه الله (فصل: ما يبطل الأعمال من المن والأذى والرياء):

«فإن عرض لهذه الأعمال من الصدقات ما يبطلها من المن والأذى والرياء؛ فالرياء: يمنع انعقادها سببًا للثواب، والمن والأذى: يبطل الثواب الذي كانت سببًا لهن، فمثل صاحبها وبطلان عمله كمثل صفوان وهو الحجر الأملس عليه تراب فأصابه وابل وهو المطر الشديد فتركه صلدًا لا شيء عليه.

وتأمل أجزاء هذا المثل البليغ وانطباقها على أجزاء الممثل به تعرف عظمة القرآن وجلالته؛ فإن الحجر في مقابلة قلب هذا المرائي والمان والمؤذي، فقلبه في قسوته عن الإيمان والإخلاص والإحسان بمنزلة الحجر، والعمل الذي عمله لغير الله بمنزلة التراب الذي على ذلك الحجر، فقسوة ما تحته وصلابته تمنعه من النبات والثبات عند نزول الوابل، فليس له مادة متصلة بالذي يقبل الماء وينبت الكلأ، **وكذلك قلب المرائي ليس له ثبات عند وابل الأمر والنهي والقضاء والقدر، فإذا نزل عليه وابل الوحي انكشف عنه ذلك التراب اليسير الذي كان عليه فبرز ما تحته حجرًا صلدًا لا نبات فيه**، وهذا مثل ضربه الله سبحانه لعمل المرائي ونفقته لا يقدر يوم القيامة على ثواب شيء منه أحوج ما كان إليه. وبالله التوفيق»[1].

* * *

(١) إعلام الموقعين، جـ ١، ص١٨٣ - ١٨٦.

الموضع السادس
الغيبـــة

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

في مجتمعاتنا هذه التي تشعر بفراغ في الاهتمام وقدرة غريبة على ضياع الأوقات في التفاهات فتنقضي الأوقات في عِرض المسلمين .. يتلذذون بالوقوع على السقطات، كالذباب لا يقع إلا على القذر، وإلى الذي يتصيدون عيوب إخوانهم .. يشتهون الوقوع عليها والظفر بها كأنما فاز بغنيمة، ويستعذب فمُه عِرض أخيه يمزقه ويجرحه ثم ينافق ويلتوي في وجهه .. ثم يفرح بسقوط داعية أو رمز من رموز الدعوة .. أو انهيار مثال من مُثُل المسلمين ..

إلى من يعجز عن النصيحة ويقدر على تمزيق الأعراض .. يضرب الله لهم هذا المثل: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

يقول ابن القيم رحمه الله:

«وهذا من أحسن القياس التمثيلي فإنه شبه تمزيق عرض الأخ بتمزيق لحمه، ولما كان المغتاب يمزق عرض أخيه في غيبته كان بمنزلة من يقطع لحمه في حال غيبة روحه عنه بالموت، ولما كان المغتاب عاجزًا عن دفعه عن نفسه بكونه غائبًا عن ذمه كان بمنزلة الميت الذي يقطع لحمه ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه.

ولما كان مقتضى الأخوة التراحم والتواصل والتناصر فعلق عليها المغتاب ضد مقتضاها من الذم والعيب والطعن كان ذلك نظير تقطيع لحم أخيه والأخوة تقتضي حفظه وصيانته والذب عنه.

ولما كان المغتاب متمتعًا بعرض أخيه متفكهًا بغيبته وذمه متحليًا بذلك شبه بآكل لحم أخيه بعد تقطيعه.

ولما كان المغتاب محبًا لذلك معجبًا به شبه بمن يحب أن يأكل لحم أخيه ميتًا، ومحبته لذلك قدر زائد على مجرد أكله، كما أن أكله قدر زائد على تمزيقه.

فتأمل هذا التشبيه والتمثيل وحسن موقعه، ومطابقة المعقول فيه المحسوس، وتأمل إخباره عنهم بكراهة أكل لحم الأخ ميتا ووصفهم بذلك في آخر الآية والإنكار عليهم في أولها أن يحب أحدهم ذلك، فكما أن هذا مكروه في طباعهم فكيف يحبون ما هو مثله ونظيره فاحتج عليهم بما كرهوه على ما أحبوه، وشبه لهم ما يحبونه بما هو أكره شيء إليهم وهم أشد شيء نفرة عنه؛ فلهذا يوجب العقل والفطرة والحكمة أن يكونوا أشد شيء نفرة عما هو نظيره ومشبهه. وبالله التوفيق»[(١)].

---

(١) إعلام الموقعين، جـ ١، ص ١٧٠.

ويقول الأستاذ سيد قطب: «﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾. ثم يعرض مشهدًا تتأذى له أشد النفوس كثافة وأقل الأرواح حساسية. مشهد الأخ يأكل لحم أخيه .. ميتًا ..! ثم يبادر فيعلن عنهم أنهم كرهوا هذا الفعل المثير للاشمئزاز، وأنهم إذن كرهوا الاغتياب!.

ثم يعقب على كل ما نهاهم عنه في الآية من ظن وتجسس وغيبة باستجاشة شعور التقوى، والتلويح لمن اقترف من هذا شيئًا أن يبادر بالتوبة تطلعا للرحمة: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾..

ويسري هذا النص في حياة الجماعة المسلمة فيتحول إلى سياج حول كرامة الناس، وإلى أدب عميق في النفوس والقلوب. ويتشدد فيه رسول الله ﷺ متمشيًا مع الأسلوب القرآني العجيب في إثارة الاشمئزاز والفزع من شبح الغيبة البغيض.

في حديث رواه أبو داود:حدثنا القعنبي، حدثنا عبد العزيز بن محمد، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله، ما الغيبة؟ قال ﷺ: «ذكرك أخاك بما يكره». قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال ﷺ: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته» ورواه الترمذي وصححه.

وقال أبو داود: حدثنا مسدد، حدثنا يحيى، عن سفيان، حدثني علي بن الأقمر عن أبي حذيفة، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا. قال عن مسدد تعني قصيرة. فقال ﷺ: «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته». قالت: وحكيت له إنسانًا. فقال ﷺ: «ما أحب أني حكيت إنسانًا وأن لي كذا وكذا» ..

وروى أبو داود بإسناده عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم. قلت: من هؤلاء يا جبرائيل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم» ..

ولما اعترف ماعز بالزنا هو والغامدية، ورجمهما رسول الله ﷺ بعد إقرارهما متطوعين وإلحاحهما عليه في تطهيرهما، سمع النبي ﷺ رجلين يقول أحدهما لصاحبه: ألم تر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب! ثم سار النبي ﷺ حتى مر بجيفة حمار، فقال: «أين فلان وفلان؟ انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار». قالا: غفر الله لك يا رسول الله! وهل يؤكل هذا؟ قال ﷺ: «فما نلتما من أخيكما آنفًا أشد أكلاً منه. والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها».

وبمثل هذا العلاج الثابت المطرد تطهر المجتمع الإسلامي وارتفع، وانتهى إلى ما صار إليه: حلمًا يمشي على الأرض، ومثلا يتحقق في واقع التاريخ»[1].

* * *

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، سورة الحجرات.

الموضع السابع
إلى من يعلم .. ولا هَمّ له في القيام بعلمه وبدينه .. ولا خطر له في العمل بل يروي ولا يرعوي .. ويتكلم ولا يعمل، ويصف الطريق ولا يسلكه .. ولكل مخالف لعلمه

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [الجمعة: ٥].

يقول ابن القيم رحمه الله: «فقاس من حَمَّله سبحانه كتابه ليؤمن به ويتدبره ويعمل به ويدعو إليه ثم خالف ذلك ولم يحمله إلا على ظهر قلب، فقراءته بغير تدبر ولا تفهم ولا اتباع له ولا تحكيم له وعمل بموجبه كحمار على ظهره زاملة أسفار لا يدري ما فيها وحظه منها حمله على ظهره ليس إلا، فحظه من كتاب الله كحظ هذا الحمار من الكتب التي على ظهره.

فهذا المثل وإن كان قد ضرب لليهود فهو متناول من حيث المعنى لمن حمل القرآن فترك العمل به ولم يؤد حقه ولم يرعه حق رعايته»(١).

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله: «فبنوا إسرائيل حُمِّلوا التوراة، وكلفوا أمانة العقيدة والشريعة.. ﴿ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴾، فحملها يبدأ بالإدراك والفهم والفقه، وينتهي بالعمل لتحقيق مدلولها في عالم الضمير وعالم الواقع. ولكن سيرة بني إسرائيل كما عرضها القرآن الكريم ـ وكما هي في حقيقتها ـ لا تدل على أنهم قدروا هذه الأمانة، ولا أنهم فقهوا حقيقتها، ولا أنهم عملوا بها. ومن ثم كانوا كالحمار يحمل الكتب الضخام، وليس له منها إلا ثقلها. فهو ليس صاحبها. وليس شريكًا في الغاية منها!.

وهي صورة زرية بائسة، ومثل سيئ شائن، ولكنها صورة معبرة عن حقيقة صادقة ﴿ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ ..

ومثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها .. كل الذين حملوا أمانة العقيدة ثم لم يحملوها. والمسلمون الذين غبرت بهم أجيال كثيرة، والذين يعيشون في هذا الزمان، وهم يحملون أسماء المسلمين ولا يعملون عمل المسلمين. وبخاصة أولئك الذين يقرؤون القرآن والكتب، وهم لا ينهضون بما فيها .. أولئك كلهم، كالحمار يحمل أسفارًا. وهم كثيرون كثيرون! فليست المسألة مسألة كتب تحمل وتدرس. إنما هي مسألة فقه وعمل بما في الكتب»(٢).

---

(١) إعلام الموقعين، جـ ١، ص ١٦٥.
(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، سورة الجمعة.

الموضع الثامن
عالم السوء الذي تخلى عن الحق وأطاع حرارة الشهوة المُلحّة فى قلبه والتي لا تفتر جمرتها فلهث على الدنيا لهثا لا ينقطع .. فاشترى الدنيا وباع الآخرة

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ ۖ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٤ - ١٧٧].

وهو مثل مضروب للذي يعلم الحق بل ويعلمه تفصيلاً، وقد يكون عالماً ..

لكن حرارة الشهوة في قلبه دائمة الإلحاح والضغط .. ولا يملك من الصبر ما يكبح جماحها وما يمنعه من مخالفة علمه، وليس عنده من الصبر ما يؤْثر به الآخرة، فهو يعرف الحق و(قد) يتواصى به كعلم لكنه لم يتواص بالصبر ليقوم بعلمه وليعمل بمقتضاه.

فمشكلته في قوّته .. لا يملك من القوة ما يقيمه على دين الله تعالى .. فترك وتخلى فلزمه الشيطان وصار وليّه واستبدله بولاية رب العالمين.

فصار مثلاً في سقوط الهمة وخسة الاهتمامات.

وهان عليه تبديل الدين .. وقلب الحقائق من أجل .. لقيمات!!.

وقد تضيع حقائق الهدى من مثل هذا الشخص المكرر في كل بيئة، فينتظر الناس من مثل هؤلاء العلماء مواقفهم ليرتبوا عليها أوضاعهم ومواقفهم التي سيتخذونها تبعًا لمواقف هؤلاء العلماء؛ فإن أضاع مَن يعلم فمتى يعلم الجاهل ؟!

بل قد تضيع أعراض ودماء ومقدرات أمة بسبب موقف يتخذه عالم يرجو ويخاف غير الله تعالى فيسمح بدواهي تنزل بالأمة لم يقف لله فيها موقف إشهاد يشتري به الآخرة ويحفظ به دينه ودين الناس ومقدرات الأمة.

فالباطل يواجه كثيرًا أهل الحق فيبطش بهم أو يظاهر الكفار على المسلمين ويسلم رقاب الأمة لأعدائها ويستشهد في هذا بمن باع ضميره من هؤلاء، ولن يجد في هذا رجلاً يتواصى بالصبر مع تواصيه بالحق فيعلم ويعمل، ولن يجد في هذا من يؤثر الدار الآخرة، لكن سيجد من تتقد في قلبه جذوة الشهوة ونار الحرص وشبق المنصب ولذة الأضواء وهتاف الراحة..

وسواء عليك أوعظته فهو دائم الحرص والشهوة، أو لم تعظه فهو على هذه الحال، لا تنجع فيه الموعظة؛ نفسه دنيئة تطلب الفتات وبقايا المزابل .. إن رفعته لا يرتفع، استمرأ الهبوط ورضي به؛ فما الحيلة وقد سقط من عين الله تعالى؟..

فلهؤلاء يقول رب العالمين: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ ۖ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٤ - ١٧٧].

يقول ابن القيم: «فشبه سبحانه من آتاه كتابه وعلمه العلم الذي منعه غيره فترك العمل به واتبع هواه وآثر سخط الله على رضاه، ودنياه على آخرته، والمخلوق على الخالق، بالكلب الذي هو من أخبث الحيوانات وأوضعها قدرًا وأخسها نفسًا، وهمته لا تتعدى بطنه، وأشدها شرهًا وحرصًا، ومن حرصه أنه لا يمشي إلا وخطمه في الأرض يتشمم ويستروح حرصًا وشرهًا ولا يزال يشم دبره دون سائر أجزائه، وإذا رميت إليه بحجر رجع إليه ليعضه من فرط نهمته.

وهو من أمهن الحيوانات وأحملها للهوان وأرضاها بالدنايا، والجيف القذرة المروحة ـ منتنة الريح ـ أحب إليه من اللحم الطري، والعذرة أحب إليه من الحلوى، وإذا ظفر بميتة تكفي مائة كلب لم يدع كلبًا واحدًا يتناول منها شيئًا إلا هرّ عليه وقهره لحرصه وبخله وشرهه.

ومن عجيب أمره وحرصه أنه إذا رأى ذا هيئة رثة وثياب دنية وحال زرية نبحه وحمل عليه كأنه يتصور مشاركته له ومنازعته في قُوته، وإذا رأى ذا هيئة حسنة وثياب جميلة ورياسة وضع له خطمه بالأرض وخضع له ولم يرفع إليه رأسه.

وفي تشبيه من آثر الدنيا وعاجلها على الله والدار الآخرة مع وفور علمه بالكلب في حال لهثه سر بديع، وهو أن الذي حاله ما ذكره الله من انسلاخه من آياته واتباعه هواه إنما كان لشدة لهفه على الدنيا لانقطاع قلبه عن الله والدار الآخرة، **فهو شديد اللهف عليها، ولهفه نظير لهف الكلب الدائم في حال إزعاجه وتركه، واللهف واللهث شقيقان وأخوان في اللفظ والمعنى.**

قال ابن جريج: الكلب منقطع الفؤاد لا فؤاد له إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث؛ فهو مثل الذي يترك الهدى لا فؤاد له إنما فؤاده منقطع.

قُلْتُ[1] **مراده بانقطاع فؤاده أنه ليس له فؤاد يحمله على الصبر وترك اللهث وهكذا الذي انسلخ من آيات الله لم يبق معه فؤاد يحمله على الصبر عن الدنيا وترك اللهف عليها، فهذا يلهف على الدنيا من قلة صبره عنها، وهذا يلهث من قلة صبره عن الماء.**

فالكلب من أقل الحيوانات صبرًا عن الماء وإذا عطش أكل الثرى من العطش وإن كان فيه صبر على الجوع، وعلى كل حال فهو من أشد الحيوانات لهثا يلهث قائمًا وقاعدًا وماشيًا وواقفًا وذلك لشدة حرصه، فحرارة الحرص في كبده توجب له دوام اللهث فهكذا مشبَهه شدة الحرص وحرارة الشهوة في قلبه توجب له دوام اللهف فإن حملت عليه الموعظة والنصيحة فهو يلهف وإن تركته ولم تعظه فهو يلهف.

---

(١) الكلام لابن القيم.

قال مجاهد وذلك مثل الذي أوتي الكتاب ولم يعمل به. وقال ابن عباس: إن تحمل عليه الحكمة لم يحملها وإن تركته لم يهتد إلى خير كالكلب إن كان رابضًا لهث وإن طرد لهث. وقال الحسن هو: المنافق لا يثبت على الحق دعي أو لم يدع وعظ أو لم يوعظ كالكلب يلهث طرد أو ترك. وقال عطاء: ينبح إن حملت عليه أو لم تحمل عليه. وقال أبو محمد بن قتيبة: كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش إلا الكلب فإنه يلهث في حال الكلال وحال الراحة وحال الصحة وحال المرض والعطش، فضربه الله مثلاً لمن كذب بآياته وقال: إن وعظته فهو ضال، وإن تركته فهو ضال كالكلب إن طردته لهث وإن تركته على حاله لهث. ونظيره قوله سبحانه: ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴾.

وتأمل ما في هذا المثل من الحكم والمعنى فمنها قوله تعالى: ﴿ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا ﴾، فأخبر سبحانه أنه هو الذي آتاه آياته فإنها نعمة، والله هو الذي أنعم بها عليه فأضافها إلى نفسه، ثم قال: ﴿ فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾ أي: خرج منها كما تنسلخ الحية من جلدها وفارقها فراق الجلد يسلخ عن اللحم، ولم يقل فسلخناه منها لأنه هو الذي تسبب إلى انسلاخه منها باتباع هواه.

ومنها قوله سبحانه: ﴿ فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ أي: لحقه وأدركه كما قال في قوم فرعون: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾، وكان محفوظًا محروسًا بآيات الله محمي الجانب بها من الشيطان لا ينال منه شيئًا إلا على غرة وخطفة، فلما انسلخ من آيات الله ظفر به الشيطان ظفر الأسد بفريسته فكان من الغاوين العاملين بخلاف علمهم الذين يعرفون الحق ويعملون بخلافه كعلماء السوء.

ومنها أنه سبحانه قال: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا ﴾، فأخبر سبحانه أن الرفعة عنده ليست بمجرد العلم فإن هذا كان من العلماء وإنما هي باتباع الحق وإيثاره وقصد مرضاة الله فإن هذا كان من أعلم أهل زمانه ولم يرفعه الله بعلمه ولم ينفعه به، فنعوذ بالله من علم لا ينفع.

وأخبر سبحانه أنه هو الذي يرفع عبده إذا شاء بما آتاه من العلم وإن لم يرفعه الله فهو موضوع لا يرفع أحد به رأسًا، فإن الخافض الرافع سبحانه خفضه ولم يرفعه، والمعنى لو شئنا فضّلناه وشرفناه ورفعنا قدره ومنزلته بالآيات التي آتيناه، قال ابن عباس: ولو شئنا لرفعناه بعمله بها. وقالت طائفة: الضمير في قوله: ﴿ لَرَفَعْنَٰهُ ﴾، عائد على الكفر والمعنى لو شئنا لرفعنا عنه الكفر بما معه من آياتنا. قال مجاهد وعطاء: لرفعنا عنه الكفر بالإيمان وعصمناه، وهذا المعنى حق، والأول هو مراد الآية وهذا من لوازم المراد، وقد تقدم أن السلف كثيرًا ما ينبهون على لازم معنى الآية فيظن الظان أن ذلك هو المراد منها.

وقوله: ﴿ وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾، قال سعيد بن جبير: ركن إلى الأرض. وقال مجاهد: سكن. وقال مقاتل: رضي بالدنيا. وقال أبو عبيدة: لزمها وأبطأ والمخلد من الرجال هو الذي يبطئ مشيته ومن الدواب التي تبقى ثناياه إلى أن تخرج رباعيته. وقال الزجاج: خلد وأخلد وأصله من الخلود وهو الدوام والبقاء ويقال أخلد فلان بالمكان إذا أقام به قال مالك بن نويرة .. بأبناء حي من قبائل مالك .. وعمرو بن يربوع أقاموا فأخلدوا ..

قلت: ومنه قوله تعالى: ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾ أي: قد خلقوا للبقاء لذلك لا يتغيرون ولا يكبرون وهم على سن واحد أبدًا، وقيل هم المقرّطون في آذانهم والمسوّرون في أيديهم، وأصحاب هذا القول فسروا اللفظة ببعض لوازمها وذلك أمارة التخليد على ذلك السن فلا تنافي بين القولين.

وقوله: ﴿ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾، قال الكلبي: اتبع مسافل الأمور وترك معاليها. وقال أبو روق: اختار الدنيا على الآخرة. وقال عطاء: أراد الدنيا وأطاع شيطانه. وقال ابن دريد: كان هواه مع القوم يعني الذين حاربوا موسى وقومه. وقال يمان: اتبع امرأته لأنها هي التي حملته على ما فعل.

فإن قيل الاستدراك بلكن يقتضي أن يثبت بعدها ما نفي قبلها أو ينفي ما أثبت كما تقول: لو شئت لأعطيته لكني لم أعطه ولو شئت لما فعلت كذا لكني فعلته فالاستدراك يقتضي ولو شئنا لرفعناه بها ولكنا لم نشأ أو لم نرفع فكيف استدرك بقوله: ﴿ وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ بعد قوله: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا ﴾؟.

قيل هذا من الكلام الملحوظ فيه جانب المعنى المعدول فيه عن مراعاة الألفاظ إلى المعاني، وذلك أن مضمون قوله ولو شئنا لرفعناه بها أنه لم يتعاط الأسباب التي تقتضي رفعه بالآيات من إيثار الله ومرضاته على هواه ولكنه آثر الدنيا وأخلد إلى الأرض واتبع هواه»[1].

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله: «**فهو يمثل حال الذين يكذبون بآيات الله بعد أن تبين لهم فيعرفوها ثم لا يستقيموا عليها .. وما أكثر ما يتكرر هذا النبأ في حياة البشر؛ ما أكثر الذين يعطون علم دين الله، ثم لا يهتدون به، إنما يتخذون هذا العلم وسيلة لتحريف الكلم عن مواضعه. واتباع الهوى به .. هواهم وهوى المتسلطين الذين يملكون لهم ـ في وهمهم ـ عرض الحياة الدنيا.**

وكم من عالم دين رأيناه يعلم حقيقة دين الله ثم يزيغ عنها ويعلن غيرها. ويستخدم علمه في التحريفات المقصودة، والفتاوى المطلوبة لسلطان الأرض الزائل! يحاول أن يثبت بها هذا السلطان المعتدي على سلطان الله وحرماته في الأرض جميعًا!.

لقد رأينا من هؤلاء من يعلم ويقول: إن التشريع حق من حقوق الله ـ سبحانه ـ من ادعاه فقد ادعى الألوهية. ومن ادعى الألوهية فقد كفر. ومن أقر له بهذا الحق وتابعه عليه فقد كفر أيضًا !.. ومع ذلك .. مع علمه بهذه الحقيقة، التي يعلمها من الدين بالضرورة، فإنه يدعو للطواغيت الذين يدّعون حق التشريع، ويدّعون الألوهية بادعاء هذا الحق .. ممن حكم عليهم هو بالكفر! ويسميهم "المسلمين"! ويسمي ما يزاولونه إسلامًا لا إسلام بعده!..

ولقد رأينا من هؤلاء من يكتب في تحريم الربا كله عامًا؛ ثم يكتب في حله كذلك عامًا آخر .. ورأينا منهم من يبارك الفجور وإشاعة الفاحشة بين الناس، ويخلع على هذا الوحل رداء الدين وشاراته وعناوينه.

فماذا يكون هذا إلا أن يكون مصداقًا لنبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين؟ وماذا يكون هذا إلا أن يكون المسخ الذي يحكيه الله سبحانه عن صاحب النبأ: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا

---

(١) إعلام الموقعين، جـ ١، ص ١٦٥ - ١٦٩.

لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾!.. ولو شاء الله لرفعه بها آتاه من العلم بآياته. ولكنه ـ سبحانه ـ لم يشأ، لأن ذلك الذي علم الآيات أخلد إلى الأرض واتبع هواه، ولم يتبع الآيات ..

إنه مثل لكل من آتاه الله من علم الله؛ فلم ينتفع بهذا العلم؛ ولم يستقم على طريق الإيمان. وانسلخ من نعمة الله. ليصبح تابعًا ذليلاً للشيطان. ولينتهي إلى المسخ في مرتبة الحيوان!.

ثم ما هذا اللهاث الذي لا ينقطع؟.

إنه ـ في حسنا كما توحيه إيقاعات النبأ وتصوير مشاهده في القرآن ـ ذلك اللهاث وراء أعراض هذه الحياة الدنيا التي من أجلها ينسلخ الذين يؤتيهم الله آياته فينسلخون منها.

ذلك اللهاث القلِق الذي لا يطمئن أبدًا. والذي لا يتركه صاحبه سواء وعظته أم لم تعظه؛ فهو منطلق فيه أبدًا!.

والحياة البشرية ما تني تطلع علينا بهذا المثل في كل مكان وفي كل زمان وفي كل بيئة .. حتى إنه لتمر فترات كثيرة، وما تكاد العين تقع على عالم إلا وهذا مثله. فيما عدا الندرة النادرة ممن عصم الله، ممن لا ينسلخون من آيات الله، ولا يخلدون إلى الأرض؛ ولا يتبعون الهوى؛ ولا يستذلهم الشيطان؛ ولا يلهثون وراء الحطام الذي يملكه أصحاب السلطان !.. فهو مثل لا ينقطع وروده ووجوده؛ وما هو بمحصور في قصة وقعت، في جيل من الزمان!.

وقد أمر الله رسوله ﷺ أن يتلوه على قومه الذين كانت تتنزل عليهم آيات الله، كي لا ينسلخوا منها وقد أوتوها. ثم ليبقى من بعده ومن بعدهم يتلى، ليحذر الذين يعلمون من علم الله شيئًا أن ينتهوا إلى هذه النهاية البائسة؛ وأن يصيروا إلى هذا اللهاث الذي لا ينقطع أبدًا؛ وأن يظلموا أنفسهم ذلك الظلم الذي لا يظلمه عدو لعدو. فإنهم لا يظلمون إلا أنفسهم بهذه النهاية النكدة!.

ولقد رأينا من هؤلاء ـ والعياذ بالله ـ في زماننا هذا من كان كأنما يحرص على ظلم نفسه؛ أو كمن يعض بالنواجذ على مكان له في قعر جهنم يخشى أن ينازعه إياه أحد من المتسابقين معه في الحلبة! فهو ما يني يقدم كل صباح ما يثبت به مكانه هذا في جهنم! وما يني يلهث وراء هذا المطمع لهاثًا لا ينقطع حتى يفارق هذه الحياة الدنيا!.

اللهم اعصمنا، وثبت أقدامنا، وأفرغ علينا صبرًا، وتوفنا مسلمين ..

ثم نقف أمام هذا النبأ والتعبير القرآني عنه وقفة أخرى ..

إنه مثل للعلم الذي لا يعصم صاحبه أن تثقل به شهواته ورغباته فيخلد إلى الأرض لا ينطلق من ثقلتها وجاذبيتها؛ وأن يتبع هواه فيتبعه الشيطان ويلزمه ويقوده من خطام هذا الهوى ..

ومن أجل أن العلم لا يعصم يجعل المنهج القرآني طريقه لتكوين النفوس المسلمة والحياة الإسلامية، ليس العلم وحده لمجرد المعرفة؛ ولكن يجعل العلم عقيدة حارة دافعة متحركة لتحقيق مدلولها في عالم الضمير وفي عالم الحياة أيضًا ..

إن المنهج القرآني لا يقدم العقيدة في صورة "نظرية" للدراسة .. فهذا مجرد علم لا ينشىء في عالم الضمير ولا في عالم الحياة شيئًا .. إنه علم بارد لا يعصم من الهوى، ولا يرفع من ثقلة الشهوات شيئًا. ولا يدفع الشيطان بل ربما ذلل له الطريق وعبدها!.

كذلك هو لا يقدم هذا الدين دراسات في "النظام الإسلامي" ولا في "الفقه الإسلامي" ولا في "الاقتصاد الإسلامي" ولا في "العلوم الكونية " ولا في "العلوم النفسية " ولا في أية صورة من صور الدراسة المعرفية!.

إنما يقدم هذا الدين عقيدة دافعة دافقة محيية موقظة رافعة مستعلية؛ تدفع إلى الحركة لتحقيق مدلولها العملي فور استقرارها في القلب والعقل؛ وتحيي موات القلب فينبض ويتحرك ويتطلع؛ وتوقظ أجهزة الاستقبال والاستجابة في الفطرة فترجع إلى عهد الله الأول؛ وترفع الاهتمامات والغايات فلا تثقلها جاذبية الطين ولا تخلد إلى الأرض أبدًا.

ويقدمه منهجًا للنظر والتدبر؛ يتميز ويتفرد دون مناهج البشر في النظر، لأنه إنما جاء لينقذ البشر من قصور مناهجهم وأخطائها وانحرافها تحت لعب الأهواء، وثقلة الأبدان، وإغواء الشيطان!.

ويقدمه ميزانًا للحق تنضبط به عقول الناس ومداركهم، وتقاس به وتوزن اتجاهاتهم وحركاتهم وتصوراتهم؛ فما قبله منها هذا الميزان كان صحيحًا لتمضي فيه؛ وما رفضه هذا الميزان كان خاطئًا يجب الإقلاع عنه.

ويقدمه منهجًا للحركة يقود البشرية خطوة خطوة في الطريق الصاعد إلى القمة السامقة. وفق خطاه هو ووفق تقديراته .. وفي أثناء الحركة الواقعية يصوغ للناس نظام حياتهم، وأصول شريعتهم، وقواعد اقتصادهم واجتماعهم وسياستهم.

ثم يصوغ الناس بعقولهم المنضبطة به تشريعاتهم القانونية الفقهية، وعلومهم الكونية والنفسية، وسائر ما تتطلبه حياتهم العملية الواقعية .. يصوغونها وفي نفوسهم حرارة العقيدة ودفعتها، وجدية الشريعة وواقعيتها؛ واحتياجات الحياة الواقعية وتوجيهاتها.

هذا هو المنهج القرآني في صياغة النفوس المسلمة والحياة الإسلامية .. أما الدراسة النظرية لمجرد الدراسة، فهذا هو العلم الذي لا يعصم من ثقلة الأرض ودفعة الهوى وإغواء الشيطان؛ ولا يقدم للحياة البشرية خيرًا!.

ويقف السياق وقفة قصيرة للتعقيب على ذلك المثل الشاخص في ذلك المشهد، للذي آتاه الله آياته فانسلخ منها، بأن الهدى هدى الله. فمن هداه الله فهو المهتدي حقًا؛ ومن أضله الله فهو الخاسر الذي لا يربح شيئًا: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ ..

والله سبحانه يهدي من يجاهد ليهتدي، كما قال تعالى في السورة الأخرى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.. وكما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾.. وكما قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾..

كذلك يضل الله من يبغي الضلال لنفسه ويعرض عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان، ويغلق قلبه وسمعه وبصره دونها. وذلك كما جاء في الآية التالية في السياق: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾.. وكما قال تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ ﴾.. وكما قال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾»[1].

* * *

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، سورة الأعراف.

obeikandl.com

الموضع التاسع

ممتنعان عن الهدى!!

من كان على هدى ثم نُزع منه، ومن هو متردد لم يُمض في الهدى عزيمة

في أول البقرة ضرب الله تعالى للمنافقين مثلين: مثلاً ناريًا ومثلاً مائيًا.

قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٥ - ١٨].

مقدمة:

للعلماء في هذا مأخذان:

١- أن المثلين مضروبان على سبيل التخيير، وأن التخيير على ظاهره فيكون المعنى خذ لهم هذا المثل أو هذا؛ فكلاهما صحيح منطبق عليهم.

٢- والمأخذ الثاني أنه قد ضُرب المثلان تنويعًا على حسب حال المنافقين، فالمنافقون على ضربين: ضرب عرف ثم أنكر؛ كان على هدى ثم نزع منه كما قال السلف .. وضرب على شك وحيرة واضطراب من أول الطريق ..

فللنوع الأول ضرب المثل الأول، وللنوع الثاني ضرب المثل الثاني، وهذا أرجح.

رجحه ابن القيم ورجحه ابن كثير وغيرهم.

يقول ابن القيم: «فضرب للمنافقين بحسب حالهم مثلين مثلاً ناريًا ومثلاً مائيًا»(١).

ويقول الحافظ ابن كثير: «وذهب ابن جرير ومن تبعه من كثير من المفسرين إلى أن هذين المثلين مضروبان لصنف واحد من المنافقين وتكون (أَوْ) في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، بمعنى الواو كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾، أو تكون للتخيير أي اضرب لهم مثلاً بهذا وإن شئت بهذا.

قال القرطبي: أو للتساوي مثل جالس الحسن أو ابن سيرين على ما وجهه الزمخشري أن كلا منهما مساو للآخر في إباحة الجلوس إليه ويكون معناه على قوله سواء ضربت لهم مثلاً بهذا أو بهذا فهو مطابق لحالهم.

(قلت)(٢): وهذا يكون باعتبار جنس المنافقين فإنهم أصناف ولهم أحوال وصفات كما ذكرها الله تعالى في سورة براءة - ومنهم - ومنهم - ومنهم - يذكر أحوالهم وصفاتهم وما يعتمدونه من الأفعال والأقوال فجعل هذين المثلين لصنفين منهم أشد مطابقة لأحوالهم وصفاتهم والله أعلم كما ضرب المثلين

---

(١) إعلام الموقعين، جـ ١، ص ١٥٠.
(٢) أي الحافظ ابن كثير.

في سورة النور لصنفي الكفار الدعاة والمقلدين في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ ﴾ إلى أن قال: ﴿ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ ﴾، فالأول للدعاة الذين هم في جهل مركب، والثاني لذوي الجهل البسيط من الأتباع المقلدين والله»(١).

* * *

أولاً: من كان على هدى ثم نزع منه

﴿ مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ١٧ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٧ - ١٨].

فلمن ذاق طعم الهدى ثم استخَفَّ به ولم يعرف قيمته، أو أجرم جريمة كان فيها من الدناءة أو الجرأة على الله تعالى ما جعل عقوبتها الحرمان من الهدى كما قال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ ﴾ [الأنعام: ١١٠]، أو آثر غيره عليه استحبابًا للعاجلة وانكبابًا لما تحت قدميه أو استبدّ به الخوف أو الشهوة في لحظة ما وتجنب المخاوف ـ بحمقه وبزعمه ـ بالتخلي عن الهدى، أو كان السبيل الذي سلكه لتحصيل شهوته بدين رب العالمين؛ يبيع هذا الأعلى ليحصّل ذاك الأدنى فزاغ .. فلما زاغ أزاغ الله قلبه وحرمه من أعظم شيء في الوجود ومن مناط نجاته وهذا هو المثال الأول الذي ضربه الله تعالى للمنافقين وهم الصنف الذي كان على هدى ثم نزع منه كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا ١٣٧ بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٣٧ - ١٣٨]، وكما قال أيضًا: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴾ [المنافقين: ٣].

فلهؤلاء سيق المثل الأول: ﴿ مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ١٧ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٧ - ١٨].

يقول ابن القيم: «وأخبر عن حال المنافقين بالنسبة إلى حظهم من الوحي وأنهم بمنزلة من استوقد نارًا لتضيء له وينتفع بها، وهذا لأنهم دخلوا في الإسلام فاستضاءوا به وانتفعوا به وآمنوا به وخالطوا المسلمين، ولكن لما لم يكن لصحبتهم مادة من قلوبهم من نور الإسلام طفئ عنهم وذهب الله بنورهم، ولم يقل: (بنارهم) فإن النار فيها الإضاءة والإحراق فذهب الله بما فيها من الإضاءة وأبقى عليهم ما فيها من الإحراق وتركهم في ظلمات لا يبصرون فهذا حال من أبصر ثم عمي وعرف ثم أنكر ودخل في الإسلام ثم فارقه بقلبه فهو لا يرجع ولهذا قال: ﴿ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴾»(٢).

ويقول ابن كثير: «وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله تعالى: ﴿ مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا ﴾ إلى آخر الآية، قال هذه صفة المنافقين كانوا قد آمنوا حتى أضاء الإيمان في قلوبهم كما أضاءت النار لهؤلاء الذين استوقدوا نارًا ثم كفروا فذهب الله بنورهم فانتزعه كما ذهب بضوء هذه النار فتركهم في ظلمات لا يبصرون.

---

(١) تفسير ابن كثير، جـ ١، ص ٨٥.
(٢) إعلام الموقعين، جـ ١، ص ١٥١.

وأما قول ابن جرير فيشبه ما رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾، قال: هذا مثل ضربه الله للمنافقين أنهم كانوا يعتزون بالإسلام فيناكحهم المسلمون ويوارثونهم ويقاسمونهم الفيء فلما ماتوا سلبهم الله ذلك العز كما سلب صاحب النار ضوءه»[١].

ويقول أيضًا معلقًا على ما ذهب إليه ابن جرير رحمه الله: «وزعم ابن جرير أن المضروب لهم المثل هاهنا لم يؤمنوا في وقت من الأوقات واحتج بقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾، والصواب أن هذا إخبار عنهم في حال نفاقهم وكفرهم وهذا لا ينفي أنه كان حصل لهم إيمان قبل ذلك ثم سُلبوه وطبع على قلوبهم، ولم يستحضر ابن جرير هذه الآية هاهنا وهي قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾، فلهذا وجه هذا المثل بأنهم استضاءوا بما أظهروه من كلمة الإيمان أي: في الدنيا ثم أعقبهم ظلمات يوم القيامة قال وصح ضرب مثل الجماعة بالواحد كما قال: ﴿ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾ أي: كدوران الذي يغشى عليه من الموت، وقال تعالى: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾، وقال تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾»[٢].

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله: «إنهم لم يعرضوا عن الهدى ابتداء، ولم يصموا آذانهم عن السماع، وعيونهم عن الرؤية وقلوبهم عن الإدراك، كما صنع الذين كفروا. ولكنهم استحبوا العمى على الهدى بعد ما استوضحوا الأمر وتبينوه .. لقد استوقدوا النار، فلما أضاء لهم نورها لم ينتفعوا بها وهم طالبوها. عندئذ ﴿ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ الذي طلبوه ثم تركوه ﴿ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾ جزاء إعراضهم عن النور!»[٣].

* * *

ثانيًا: المتردد الذي لم يُمض في الهدى عزيمة وضعفت بصيرته عن حمل الهدى

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ١٧ - ١٨].

وهذه شخصية أخرى مترددة لا تقدر على الرؤية ولا البصيرة .. عنده ضعف في بصيرته كمن عنده ضعف في بصره ..

لا يستطيع القرار والمضي في الهدى إلى النهاية .. متخبط .. متردد ..

فلهذه الشخصية يسوق القرآن مثلها ليعلم مدى الجريمة في تردده عن الهدى، وعدم رؤيته لعدم بحثه عنه بصدق وعدم استعانته بربه وتوكله عليه ليهتدي، ولفقده وخلوّه من الاعتصام بالله تعالى فاحتفظ بقلب مريض ..

---

(١) تفسير ابن كثير، جـ ١، ص ٨٣.
(٢) المصدر السابق، جـ١، ص ٨٣.
(٣) في ظلال القرآن، سورة البقرة.

لم يعرف مرضه ولم يواجه نفسه بهذا؛ فلم يطلب علاجه، ولو طلب لوجد، لكنه احتفظ بهذا المرض وبهذا القلب الذي كان خطرًا يحمله بين جنبيه دفعه لمواقف السوء ولاختيارات فاشلة ولأعمال أوردته الهلكة، فقد ظل يحمل السُعُر من الشك والاضطراب في صدره ألمًا يجد مسه دومًا .. يبيت معه ويصحو معه لا انفكاك له عنه، ولم يرض بربه حسبًا ووكيلاً ولم يطلب من ربه ولا من كتابه شفاء دائه، وأي داء أدوأ من الشك والحيرة والتهوك، ونكرر لو طلب لوجد .. لكنه لم يطلب فلم يشف، وباء بسوئه، ولقى ربه به.

فلهؤلاء سيق لهم المثل الثاني: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ١٧ - ١٨].

يقول ابن القيم: «ثم ذكر حالهم بالنسبة إلى المثل المائي فشبههم بأصحاب صيب وهو المطر الذي يصوب أي ينزل من السماء، فيه ظلمات ورعد وبرق، فلضعف بصائرهم وعقولهم اشتدت عليهم زواجر القرآن ووعيده وتهديده وأوامره ونواهيه وخطابه الذي يشبه الصواعق، فحالهم كحال من أصابه مطر فيه ظلمة ورعد وبرق، فلضعفه وخوره جعل أصبعيه في أذنيه وغمض عينيه خشية من صاعقة تصيبه.

وقد شاهدنا نحن وغيرنا كثير من مخانيث تلاميذ الجهمية والمبتدعة إذا سمعوا شيئًا من آيات الصفات وأحاديث الصفات المنافية لبدعتهم رأيتهم عنها معرضين، كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة، ويقول مخنثهم: سدوا عنا هذا الباب واقرءوا شيئًا غير هذا، وترى قلوبهم مولّية وهو يجمحون لثقل معرفة الرب سبحانه وتعالى وأسمائه وصفاته على عقولهم وقلوبهم.

وكذلك المشركون على اختلاف شركهم إذا جرد لهم التوحيد وتليت عليهم النصوص المبطلة لشركهم اشمأزت قلوبهم وثقلت عليهم، ولو وجدوا السبيل إلى سد آذانهم لفعلوا، ولذلك تجد أعداء أصحاب رسول الله إذا سمعوا نصوص الثناء على الخلفاء الراشدين وصحابة رسول الله ﷺ ثقل ذلك عليهم جدًا وأنكرته قلوبهم، وهذا كله شبه ظاهر ومثل محقق من إخوانهم من المنافقين في المثل الذي ضربه الله لهم بالماء فإنهم لما تشابهت قلوبهم تشابهت أعمالهم»(١).

ويقول ابن كثير: «أي كلما ظهر لهم من الإيمان شيء استأنسوا به واتبعوه، وتارة تعرض لهم الشكوك أظلمت قلوبهم فوقفوا حائرين. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ ﴾، يقول: كلما أصاب المنافقين من عز الإسلام اطمأنوا إليه وإذا أصاب الإسلام نكبة قاموا ليرجعوا إلى الكفر كقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ﴾. وقال محمد بن إسحاق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس: ﴿ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ﴾ أي: يعرفون الحق ويتكلمون به فهم من قولهم به على استقامة فإذا ارتكسوا منه إلى الكفر قاموا أي متحيرين وهكذا قال أبو العالية والحسن البصري وقتادة والربيع بن أنس والسدي بسنده عن الصحابة وهو أصح وأظهر والله أعلم»(٢).

---

(١) إعلام الموقعين، جـ ١، ص ١٥١ - ١٥٢.
(٢) تفسير ابن كثير، جـ ١، ص ٨٥.

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله: «إنه مشهد عجيب، حافل بالحركة، مشوب بالاضطراب. فيه تيه وضلال، وفيه هول ورعب، وفيه فزع وحيرة، وفيه أضواء وأصداء .. صيب من السماء هاطل غزير ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ .. ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ﴾ .. ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾ .. أي: وقفوا حائرين لا يدرون أين يذهبون. وهم مفزعون: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ ..

إن الحركة التي تغمر المشهد كله من الصيب الهاطل، إلى الظلمات والرعد والبرق، إلى الحائرين المفزعين فيه، إلى الخطوات المروعة الوجلة، التي تقف عندما يخيم الظلام .. إن هذه الحركة في المشهد لترسم ـ عن طريق التأثر الإيحائي ـ حركة التيه والاضطراب والقلق والأرجحة التي يعيش فيها أولئك المنافقون .. بين لقائهم للمؤمنين، وعودتهم للشياطين. بين ما يقولونه لحظة ثم ينكصون عنه فجأة. بين ما يطلبونه من هدى ونور وما يفيئون إليه من ضلال وظلام .. فهو مشهد حسي يرمز لحالة نفسية؛ ويجسم صورة شعورية. وهو طرف من طريقة القرآن العجيبة في تجسيم أحوال النفوس كأنها مشهد محسوس»[١].

وقد لا تكون مشكلته في شكه بل في عدم قيامه بالحق؛ يرى ولا يمضي، يعلم ولا يعمل، يعلم ولكن يكره الحق لعدم توافقه مع فطرته المنتكسة.

يقول الشيخ عبد المجيد الشاذلي: «أجمل تصوير لهم؛ فليس الأمر أمر شك أو تكذيب ،كلا بل يعرفون الحق معرفة لا تنكر كما يضئ البرق ولكن لا يتحملونه لعدم اتفاق فطرتهم المنتكسة معه فيتنكبون عنه وإن كانوا يتبعونه أحيانًا ولكنهم لا يثبتون على ذلك»[٢].

ويقول شيخ الإسلام: «وقد أخرجا في الصحيحين عن أبى موسى عن النبي أنه قال: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها».. وهذا المنافق الذي يقرأ القرآن يحفظه ويتصور معانيه وقد يصدق أنه كلام الله وأن الرسول حق ولا يكون مؤمنًا، كما أن اليهود يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وليسوا مؤمنين، وكذلك إبليس وفرعون وغيرهما، لكن من كان كذلك لم يكن حصل له العلم التام والمعرفة التامة؛ فإن ذلك يستلزم العمل بموجبه لا محالة ولهذا صار يقال لمن لم يعمل بعلمه أنه جاهل»[٣].

---

(١) في ظلال القرآن، سورة البقرة.
(٢) حد الإسلام، هامش ص ٤٩٠.
(٣) مجموع الفتاوى، جـ ٧، ص٢٣ - ٢٤.

الموضع العاشر
أعمال حابطة .. عمل المبتدع الضال وعمل الغاوي المعاند

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور: ٣٩-٤٠].

أولاً: المبتدع الضال:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ [النور: ٣٩].

المثال الأول للكافر الضال الذى يحسب أنه على هدى ..

والذى يلحق به وله نصيب من ذمه بحسب حاله: المبتدع والمخالف لأصول السلف من الصحابة والقرون المفضلة، وإلى من يفسرها تفسيرًا مبتدعًا .. فهذا له من هذا الذم نصيب بحسب قوة بدعته.

وإلى العامل على غير هدى ..لم ينظر إلى ما يجب أن يتعلمه في طريقه من البصيرة ليكون على بينة، بل عمل بالظن والتخرص والأماني وقد قال تعالى: ﴿ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ ﴾، فإلى من يعمل ويفتقد أصول الأمور.

من يعمل ويجهد لكنه يصرف شيئًا من حقوق الله الخالصة إلى غير الله، عبادة شرك أعظم ثم يظن أن انتسابه للإسلام يفيده مع العمل القاطع بأنه شرك.

وإلى من يتعبد بزعمه أو يكتفي بانتسابه وقد يتستر بحج البيت أو غيره لكنه يفصل الدين عن الدولة والحياة، ولا يرى دين الله منهاجًا ..

إلى من يقبل شريعة غير شريعة الله ويجيز أن تسير الحياة على غير شريعته، تحت حجة تغير الزمان وتغير الظروف، أو كراهة لدين الله لمصادمته لهواه أو تشربًا لمشرب حضاري غير الإسلام انفعالاً بالغرب أو غيره.. ثم يتعبد فى زعمه بعد ذلك !!.

إلى هؤلاء يساق لهم المثل الأول: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ [النور: ٣٩].

يقول ابن القيم: «ذكر سبحانه للكافرين مثلين مثلاً بالسراب ومثلاً بالظلمات المتراكمة وذلك لأن المعرضين عن الهدى والحق نوعان:

أحدهما: من يظن أنه على شيء، فيتبين له عند انكشاف الحقائق خلاف ما كان يظنه، وهذه حال أهل الجهل وأهل البدع والأهواء الذين يظنون أنهم على هدى وعلم، فإذا انكشفت الحقائق تبين لهم أنهم لم يكونوا على شيء وأن عقائدهم وأعمالهم التي ترتبت عليها كانت كسراب بقيعة يرى في عين الناظر ماء ولا حقيقة له، وهكذا الأعمال التي لغير الله وعلى غير أمره يحسبها العامل نافعة له وليست كذلك، وهذه هي الأعمال التي قال الله عز وجل فيها: ﴿ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴾.

وتأمل جعل الله سبحانه السراب بالقيعة وهي الأرض القفر الخالية من البناء والشجر والنبات والعالم، فمحل السراب أرض قفر لا شيء بها، والسراب لا حقيقة له، وذلك مطابق لأعمالهم وقلوبهم التي أقفرت من الإيمان والهدى.

وتأمل ما تحت قوله: ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ﴾، والظمآن الذي قد اشتد عطشه فرأى السراب فظنه ماء فتبعه فلم يجده شيئًا بل خانه أحوج ما كان إليه، فكذلك هؤلاء لما كانت أعمالهم على غير طاعة الرسول ولغير الله جعلت كالسراب، فرفعت لهم أظمأ ما كانوا وأحوج ما كانوا إليها فلم يجدوا شيئًا ووجدوا الله سبحانه ثَمَّ؛ فجازاهم بأعمالهم ووفاهم حسابهم.

وفي الصحيح من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في حديث التجلي يوم القيامة: «.. ثم يؤتى بجهنم تعرض كأنها السراب فيقال لليهود: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد عزير ابن الله. فيقال: كذبتم لم يكن لله صاحبة ولا ولد. فما تريدون؟ قالوا: نريد أن تسقينا. فيقال: اشربوا فيتساقطون في جهنم. ثم يقال للنصارى: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد المسيح ابن الله. فيقال لهم: كذبتم لم يكن لله صاحبة ولا ولد. فما تريدون؟ فيقولون: نريد أن تسقينا. فيقال: لهم اشربوا فيتساقطون».. وذكر الحديث.

وهذه حال كل صاحب باطل، فإنه يخونه باطله أحوج ما كان إليه، فإن الباطل لا حقيقة له، وهو كاسمه باطل، فإذا كان الاعتقاد غير مطابق ولا حقّ كان متعلقه باطلاً، وكذلك إذا كانت غاية العمل باطلة كالعمل لغير الله أو على غير أمره بطل العمل ببطلان غايته وتضرر عامله ببطلانه وبحصول ضد ما كان يؤمله؛ فلم يذهب عليه عمله، واعتقاده لا له ولا عليه، بل صار معذبًا بفوات نفعه وبحصول ضد النفع، فلهذا قال تعالى: ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾، فهذا مثل الضال الذي يحسب أنه على هدى»[1].

* * *

ثانيًا: الغاوي المعاند

فإلى المعاند على بينة ومن يغلِّب هواه على مقتضى الطاعة .. فدخل في عماية الهوى وتراكبت عليه الشهوات ثم لحقته الشكوك .. لهذا الصنف يضرب الله تعالى المثل الثاني: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

يقول ابن القيم: «النوع الثاني: أصحاب مثل الظلمات المتراكمة وهم الذين عرفوا الحق والهدى وآثروا عليه ظلمات الباطل والضلال فتراكمت عليهم ظلمة الطبع وظلمة النفوس وظلمة الجهل حيث لم يعملوا بعلمهم فصاروا جاهلين، وظلمة اتباع الغي والهوى، فحالهم كحال من كان في بحر لجي لا ساحل له وقد غشيه موج ومن فوق ذلك الموج موج ومن فوقه سحاب مظلم؛ فهو في ظلمة البحر وظلمة الموج وظلمة السحاب، وهذا نظير ما هو فيه من الظلمات التي لم يخرجه الله منها إلى نور الإيمان.

---

(١) إعلام الموقعين، جـ ١، ص ١٥٥ - ١٥٦.

وهذان المثلان بالسراب الذي ظنه مادة الحياة وهو الماء، والظلمات المضادة للنور، نظير المثلين اللذين ضربهما الله للمنافقين والمؤمنين، وهو المثل المائي والمثل الناري، وجعل حظ المؤمنين منهما الحياة والإشراق، وحظ المنافقين منهما الظلمة المضادة للنور والموت المضاد للحياة، فكذلك الكفار في هذين المثلين: حظهم من الماء السراب الذي يغر الناظر ولا حقيقة له، وحظهم الظلمات المتراكمة.

وهذا يجوز أن يكون المراد به حال كل طائفة من طوائف الكفار وأنهم عدموا مادة الحياة والإضاءة بإعراضهم عن الوحي فيكون المثلان صفتين لموصوف واحد، ويجوز أن يكون المراد به تنويع أحوال الكفار وأن أصحاب المثل الأول هم الذين عملوا على غير علم ولا بصيرة بل على جهل وحسن ظن بالأسلاف فكانوا يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، وأصحاب المثل الثاني هم الذين استحبوا الضلالة على الهدى وآثروا الباطل على الحق وعموا عنه بعد أن أبصروه وجحدوه بعد أن عرفوه، فهذا حال المغضوب عليهم، والأول حال الضالين.

وحال الطائفتين مخالف لحال المنعم عليهم المذكورين في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ إلى قوله: ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾، فتضمنت الآيات أوصاف الفرق الثلاثة المنعم عليهم: وهم أهل النور، والضالين هم أصحاب السراب، والمغضوب عليهم وهم أهل الظلمات المتراكمة. والله أعلم.

فالمثل الأول من المثلين لأصحاب العمل الباطل الذي لا ينفع، والمثل الثاني لأصحاب العلم الذي لا ينفع والاعتقادات الباطلة، وكلاهما مضاد للهدى ودين الحق، ولهذا مثّل حال الفريق الثاني في تلاطم أمواج الشكوك والشبهات والعلوم الفاسدة في قلوبهم بتلاطم أمواج البحر فيه، وأنها أمواج متراكمة من فوقها سحاب مظلم، وهكذا أمواج الشكوك والشبه في قلوبهم المظلمة التي قد تراكمت عليها سحب الغي والهوى والباطل؛ فليتدبر اللبيب أحوال الفريقين وليطابق بينهما وبين المثلين يعرف عظمة القرآن وجلالته وأنه تنزيل من حكيم حميد.

وأخبر سبحانه أن الموجب لذلك أنه لم يجعل لهم نورًا بل تركهم في الظلمة التي خلقوا فيها فلم يخرجهم منها إلى النور فإنه سبحانه وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور، وفي المسند من حديث عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ قال: «إن الله خلق خلقه في ظلمة وألقى عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل».

فلذلك أقول: جف القلم على علم الله؛ فالله سبحانه خلق الخلق في ظلمة فمن أراد هدايته جعل له نورًا وجوديًا يحيي به قلبه وروحه كما يحيي بدنه بالروح التي ينفخها فيه؛ فهما حياتان حياة البدن بالروح وحياة الروح والقلب بالنور، ولهذا سمى سبحانه الوحي روحًا لتوقف الحياة الحقيقية عليه كما قال تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾، وقال: ﴿ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ ﴾، فجعل وحيه روحًا ونورًا فمن لم يحيه بهذا الروح فهو ميت ومن لم يجعل له نورًا منه فهو في الظلمات ما له من نور[1].

---

(١) إعلام الموقعين، جـ ١، ص ١٥٧ - ١٥٨.

الموضع الحادي عشر

مثل مضروب لإعطاء الأمور حقها وبيان مواضعها وبيان الفرق بين المؤمن ، والإيمان ، ومصيره .. وبين الكافر، والكفر، ومصيره

﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴾ [فاطر: ١٩ - ٢٢].

يقول البيضاوي: «﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ الكافر والمؤمن.

وقيل: هما مثلان للصنم ولله عز وجل.

﴿ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴾ ولا الباطل ولا الحق.

﴿ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴾ ولا الثواب ولا العقاب.

و(لا) لتأكيد نفي الاستواء، وتكريرها على الشقين لمزيد التأكيد و﴿ ٱلْحَرُورُ ﴾ فعول من الحر غلب على السموم، وقيل السموم ما يهب نهارًا والحرور ما تهب ليلاً.

﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾ تمثيل آخر للمؤمنين والكافرين أبلغ من الأول ولذلك كرر الفعل وقيل للعلماء والجهلاء.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ﴾ هدايته فيوفقه لفهم آياته والاتعاظ بعظاته.

﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴾ ترشيح لتمثيل المصرِّين على الكفر بالأموات ومبالغة في إقناطه عنهم»[1].

* * *

هذه بعض الأمثال وغيرها كثير يوجد في كتاب الله تعالى، ولتراجع في مظانها، وإنما أردنا مجرد التنبيه على أهمية هذا المجال وأهمية فهمه والعلم به وبيان ما يعالجه من الأمراض والإنحرافات كدواء ناجع ..

وصل اللهم وسلم وبارك على أكرم الخلق محمد ﷺ
وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين ..

---

(١) تفسير البيضاوي، جـ ١، ص٤١٦ - ٤١٧.